

رسول الله

علي بن جابر الفيفي

الطبعة الأولى

دار الحضارة للنشر والتوزيع

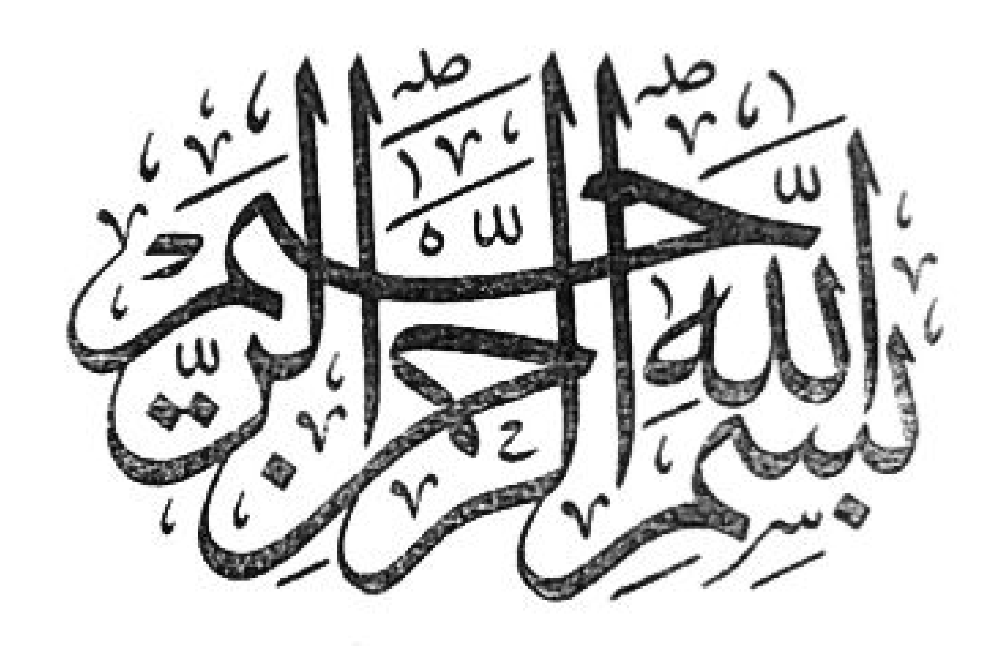
ح دار الحضارة للنشر و التوزيع، ١٤٤٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
الفيفي، علي جابر
الرجل النبيل. / علي جابر الفيفي - ط١- الرياض ١٤٤٠هـ
ص ١٨٨؛ ١٤×٢٠سم
ردمك: ٧- ٥٥- ٣-٨٢٥٣-٦٠٣-٩٧٨
١-السيرة النبوية أ- العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٤٠/٦١٢٧

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٦١٢٧
ردمك: ٧- ٥٥- ٨٢٥٣-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ/٢٠١٩م

تصميم و إخراج
Mustafa.h123 @hotmail.com

دار الحضارة للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد: 920000908 الفاكس: 2702719 - 011
0551523173 @daralhadarah
زوروا متجر الحضارة: hadarah.store
متجر الحضارة
HADARAH • STORE


بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

كان النبي ﷺ إذا أراد أن يخطب يستند إلى جذع شجرة ويخطب..

وذات يوم صنع أحد الصحابة الكرام للنبي ﷺ منبراً ليخطب عليه بدل ذلك الجذع، يقول الراوي: فلما وُضع المنبر أول ما وُضع، وجاء النبي ﷺ ليخطب فجاوز الجذع إلى المنبر، فعند ذلك حنّ الجذع، وجعل يئنّ كما يئنّ الصبي..

إلى «الجِذع» الذي حنَّ ذاتَ يوم للحبيب -عليه الصلاة والسلام- أُهدي هذا الكتاب.

علي بن جابر الفيفي

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وصحبه ومَن والاه، وبعد؛

فإن نفسي منذ زمن تُراودني لأكتب في السيرةِ النبويَّة، والحديثِ عن أيَّام المصطفى ﷺ وأخوضَ تجربةَ التشرُّف بكتابة شيء عن شمائله وصفاته الزكيَّة النقيَّة، فأجدني أتهيَّب وأتردد حينًا، وأعجِز وأحار حينًا.

ولا أُخفي القارئَ أن لي محاولات سبقت هذه المحاولة، كانت الأولى منها قبل اثنتي عشرة سنة خصصتها لرحمته ﷺ ثمَّ ضاع كلُّ ما جمعته وكتبته، والحمد لله الذي لا يُقدِّر إلا الخير.

ولي محاولة أُخرى بدأتها قبل سنتين، وصرتُ أتعهَّدها كلَّما نشطَت الهمَّة في الإجازات مُضيفًا، أو مُغيِّرًا ومُعدِّلًا، يسَّر الله إتمامها على ما يحبُّ ويرضى سبحانه.

أمَّا هذه الأوراق الموسومة بـ «الرجل النبيل» فقد طرأت فكرتها قبل شهرين تقريبًا، ثم وجدتُني أكتبها، وكأنَّ سَنَنًا ما

قد شُقَّ لي، فأسلكه وأنا خبير بمضائقه ومهايعه، ووجدت راحة في كتابة هذه الأسطر، التي تأخذ من كتابة السيرة شيئًا، ومن كتابة الشمائل شيئًا، ومن سِيَر الصحابة الكرام شيئًا، فكانت مزيجًا محمَّديًّا إن صحَّ التعبير، وسيرة موضوعيَّة، لم أحرص على شكلها بقدر حرصي على ذاك المذاق العام الذي أرجو أن يحسَّه القارئ، مذاق الحبِّ والهيبة لهذا النبي العظيم.

سمَّيتُ هذه الأوراق «الرجل النبيل»؛ لأنَّه ﷺ أنبلُ رجلٍ عرَفَته البشريَّة؛ ولأنَّ النُّبل ظاهر في تفاصيل حياته، في رضاه وغضبه، في حزنه وفرحه، قبل نبوَّته وبعدها، فهو بحقٍّ الرجل النبيل.

ولا أُخفي أنَّ إخوة فضلاء كُثُرًا قد اقترحوا عليَّ خوض هذه التجربة بعد صدور كتابي «لأنَّك الله» فقالوا: لماذا لا تكتب شيئًا عن النبي محمد ﷺ لعلَّ الله يفتح عليك ما يفيد الأجيال المتعطِّشة لمعرفة سيرته، والاقتداء بهَديه.

فلعلَّ اقتراحاتهم، ودعواتهم، وسابق اهتمام وقراءة لديَّ في هذا الجانب، ثم قبل هذا وبعده إرادة وتيسير من الله -سبحانه- كانت كلُّها أسبابًا جعلت هذا العمل

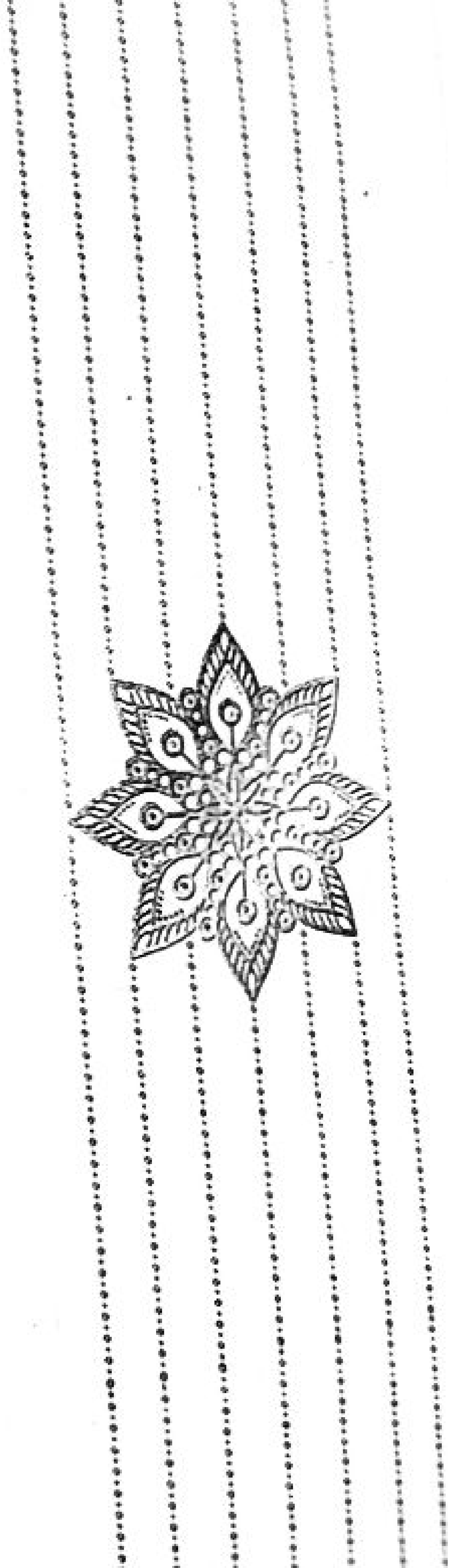
المتواضع يظهر، وإن كنت أرى أنَّه بحاجة إلى تهذيب أكثر، وزيادة فصول أخرى مهمَّة تتعلَّق بجوانب من شخصيَّته ﷺ.. فلعلَّ مثل هذه الإضافات تخرُج في المستقبل في نفس هذا الكتاب، أو في جزء آخرَ منه!

أسأل الله تعالى أن يجزي خيرًا كلَّ مَن اقترح، أو دعا، أو راجع، أو صوَّب، وأخص الشيخ الفاضل: أحمد بن غانم الأسدي (صاحب الكتب المباركة في سيرة النبي ﷺ) فقد قرأ جزءاً كبيراً من الكتاب، وتفضّل بتصويبات نافعة، وإرشادات مهمّة فجزاه الله خيرا.

وأسأل الله أن يبارك في هذا الكتاب، ويُفضِل -سبحانه- على كاتبه ووالديه وأهله، وكل قارئ له، ويغفر لنا ولجميع المسلمين.

وأن يُنيلنا -سبحانه- شفاعة نبيِّه الكريم.. هذا وصلَّى الله وسلَّم وبارَك على سيِّد الخلق محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

علي بن جابر الفيفي





اقرأ باسم ربّك

لو استطعنا العودة إلى الوراء أكثرَ من ألف وأربع مئة وخمسين سنة، والدلوف إلى مكة، والنظر إلى سوق من أسواقها نظرة عُلويَّة، لكُنَّا رأينا صورة مكتظة بالحياة والحركة.

فهذا رجل يبيع قماشًا جلبه من رحلته إلى اليمن، ويُغالي في سعره لينال من ذلك الحاجِّ ثمنًا طيبًا، يرفع من مستوى معيشته.

وذاك آخرُ يَعرِض سيوفًا ودروعًا هنديَّة، ويقف أمامه ثلاثة يتأمَّلون ما جلبه من سلاح جيِّد الصنع.

وهناك امرأة تسقي الناس الماء..

وفي مدخل السوق رجال متحلِّقون حول سائس خيول يُعلي صوته في وصف فرس أصيلة، يدَّعي تميُّزها وتفرُّدها في الصفات.

وهناك (دكّان) تدخله النساء خَفِراتٍ ليَشترينَ حاجيَّاتهنَّ، ويخرجْنَ متلفِّعاتٍ بمُرُطهنَّ حياءً وحِشمةً.

وفي ظل تلك الشجرة يجلس الشاب "محمَّد" هادئَ الصوت، متسقَ القسَمات، وقد بسط بضاعته كما يفعل كل مَن في السوق، فإذا ما وقف مُشترٍ يسأله عن سلعة ما، ذكر له مميزاتها كما يفعل أي بائع، ثم أردف بذكر بعض ما يَعيبها، فلا تُنفِّر تلك المعايب المشتريَ بقدر ما تُغريه للشراء؛ لأنها تُشعِره بمصداقيَّة هذا الرجل الأمين.

كان جميع مَن في السوق يرمُقون الحياة بعيون لا ترى غير الدينار والدرهم، ويستمعون إلى ذلك الضجيج بآذان لا يصل إليها إلا لغة: "مَن يزيد؟ مَن يزيد؟".. ولا عجب، فهذا سوق، ومن الغريب ألَّا يكون الشخص بهذه الكيفية في سوق يجتمع فيه الناس للبيع والشراء.

ولكنّ العجب هو مجموعة القيم التي تُشكِّل سورًا يُحيط بذلك الفتى آنِف الذكر، والتي تجعل الدينار والدرهم في منزلة متأخرة من اهتماماته، وكأنَّه لم يحضُر للسوق ليبيع، وإنَّما ليوزِّع شيئًا من رُؤاه، واعتقاداته، ومبادئه بالمجان، حتى يَنْضَح على هذه الكُتَل البشريَّة شيئًا من إنسانيَّته المكتظة بالأشياء الثمينة.

كان يسمع الكذب الذي تنثُره الأفواه في أزقَّة ذلك السوق،

ونسير به وديان مكَّة آخرَ النهار، فيُقاومه بأحرف يَتحرَّى فيهنَّ الصدق أدقَّ ما يُتحرَّى.. وكأنَّه يتخايل كلمات الصدق، وهنَّ يشمُخنَ بأَنَفَة بين أطنان الكذب الميِّت.

وسؤال يُشِعُّ من عينيه: ما قيمة الحياة بلا صدق؟ وما أهميَّة الوجود بلا أمانة؟ وما فائدة البقاء بلا نُبل؟

تهُم شمس ذلك اليوم بالغروب، فإذا بكل بائع يفتح مخبَأهُ، أو صُرَّة نقوده الجِلديَّة ليَعُدَّ دنانيره التي جلبها له الكذب البارد، والحلف باللات والعُزَّى على أنَّ تلك السلعة من أجود ما يمكن شراؤه.. بينما محمد يسير مُتَّجهًا إلى بيت زوجه خديجة، منشغِلَ البال بأولئك الذين يعتقدون أنَّ الكذب البوابةُ الوحيدةُ لجَنْي الأرباح، ويتمنَّى لو استطاع أن يزرع ما يؤمن به في تلك القلوب المنهَكة، التي تظن أن الحياة غير ممكنة بدون شيء من الزيف والمكر.

يصل إلى بيته، ويدفع بغَلَّة تلك الجَولة إلى زوجه، ويحمل شيئًا من الزاد الذي هيَّأته له خديجة، وينطلق بهدوء إلى المكان الذي يجد فيه نفسه، ويُلملم فيه شَتات رُوحه التي مزَّقتها جاهلية ذلك الزمن المظلم.

في الغار:

ليس في طريقه إلى عزلته شجرة ولا حجرة؛ إلا وشيء كالهيبة يَغشاها إذا ما مرَّ بجِوارها! مِسْكٌ ما ينبعث من خطواته، وشَذًى خاص ينتُج عن امتزاج عطره بعطر تلك الجبال الشامخة التي ينظر إليها، وتنظر إليه.

وما هي عزلته؟

لقد أنهكه الإنسان بشكله الحاليّ، لقد تعِب من الكذب الذي يلُف المشاعر والأحاسيس والمعتقدات.. كل شيء حوله يمارس خيانةً ما، وهو الوحيد الذي بات البياض هو اللون المفرَد لنسيج نفسه الطيبة.

إن هؤلاء يسجدون للأصنام، هذه الأصنام التي لا يشعر تجاهها بأي شعور إيجابي!

ويذبحون للأوثان، ويحلِفون باللات والعُزَّى، ويَزْنون، ويكذِبون، ويغُشُّون، ويشهَدون الزور، ويدفنون بناتهم، ويشُنُّون الغارة تلوَ الغارة لأجْل ناقة مسروقة، أو كلمة منطوقة! ما الذي تبقَّى من القُبح لم تقترِفه أرواحهم؟ كل شيء

أسود مظلم بات عادةً وتقليدًا يحاربون من أجله، ويُدافعون عنه، ويهتفون به.

هذه الحياة السوداء لا تليق بمحمَّد، مهما حاول أن يمسح شيئًا من السواد عن لوحتها الكبيرة، إن الأصابغ القاتمة تراكمت بطيش، حتى بات من العسير إضافة لون أبيض، أو معنًى جميل؛ لذلك فقد حُبِّب لهذا الشاب أن يترُك الجاهليَّة وراء ظهره، ويذهب كلَّما سنَحت له الفرصة إلى تلك الجبال البعيدة، تلك الجبال التي يسمَعها تهمِس بأشياء تُدركها رُوحه، ولا يتحققها عقله، كأنَّها تُريد أن تقول له شيئًا مهمًّا للغاية، كأنَّها تُريد أن تُفصِح له عن ماهيَّته التي ما زال حتى اللحظة لا يُدركها.

يصل إلى تلك الجبال، فتَنهال عليه مشاعر يصعُب على أهل مكَّة إدراكُها، مشاعر تجعل الحياة كلَّها شيئًا صغيرًا بموازاتها.

يرمُق الغار وكأنَّ صداقة حميمة تربِطه به، فيَرقى صخور ذلك الجبل متوسط الشموخ، وكأنَّه لا يمكن لشموخَيْن عظيمَيْن أن يجتَمِعا في مكان واحد!

يدخل الغار، فيلتقي النوران، نور يتدفَّق منه، ونور آخَرُ يتدفَّق إليه.

والغار بعد أن كان جزءًا من جبل صغير، بات الجبل العظيم (محمّد) جزءًا منه! والعادة أن تكون المغارات في الجبال لا الجبال في المغارات.

يُنزِل زَوّادته في زاوية من زوايا الغار، ويَفرِش بِساطه، ويتطهَّر، ويبدأ في التحنُّث، وهذا التحنُّث والتعبُّد هو حياته التي يتزوَّد لها، ورحلته التي يتجشَّم لها.. ويأخُذ في انهيالات تنزيه خالقه عمّا يسمَعه ويراه من تجاوزات البشَر الذين عبدوا كل شيء غير ذلك الخالق، عبدوا الحجر والشجر والشمس والقمر، عبدوا الشهوات والأهواء، وبنَوْا آلهتهم من الآجُرّ والطين والتمر والسمن، ثم سجدوا لها.. وتركوا رب السموات السبع، ورب الأرض، رب العرش العظيم.

تُرى من أين جاء ذلك النور لقلب محمّد؟ وكيف اتّسَقت هالاته في قلبه بتلك الكيفية العجيبة؟

هل حادثة شقِّ صدره في شِعْب بنِي سعد هي البداية؟ عندما كان في السادسة من عمره وهو يلعب مع الصبيان، إذا برجلَيْن غريبَيْن يَقدَمان، فيهرُب الجميع منهما عداه، فيُضجِعانه أرضًا، ثم يَشُقّان صدره، وينزِعان منه عَلَقة سوداء، ثم يقول أحدهما للآخر: هذا حظُّ الشيطان منه.

فينزِعان حظَّ الشيطان، فيغدو إنسانًا يعيش بلا نزَغات شيطانية!

ثم يَحشوان صدره نورًا، ويغسِلان قلبه بماء المُزْن، ثم يُعيدانه ويرتُقان ذلك الشق.

هل تلك القصَّة هي بداية تلك الأنوار في ذلك الإنسان؟ أم أن هناك إرادة سبقت تلك الحادثة، فكتب السِّيَر تروي أنَّه منذ أن وُلد كان طفلًا غريب الأطوار، ما إن وضعته أمُّه حتى شخَص بعينيه الصغيرتَيْن إلى السماء، وكأنَّه من أول يوم، بل من أوَّل لحظة يُعلن انتماء كل شيء فيه لجهة النقاء والصفاء والعظمة!

بل ويُروى أنَّه -وقبل ولادته- كانت هناك إرهاصات تؤكد أنَّ شيئًا قادمًا إلى الدنيا لا يَنتمي إليها إلَّا بقدر انتماء نور الشمس إلى الكون، سيأتي ليُضيء الأرض، وإن كان سماويَّ التوجُّه والاهتمام والمرجعيَّة.

فقد رأت أمُّه آمِنةُ بنتُ وَهْبٍ نورًا يخرُج منها تُضيء له قصور بُصْرى في الشام!

ثم إذا رجَعنا إلى الخلف أكثر، قرأنا عن إرهاصات متعددة

تستبشر بقرب مجيء الرجل الأهم في التاريخ.. إذنْ ليست أنواره حادثة، ولا إرادةُ أن يزور هذه الحياة قريبةً، إنَّها بعمر هذا الكون، لقد قدَّر الله أن يكون هذا الرجل هو نهاية عهد الظلام الإنساني، والكذب البشَري، وطغيان الزيف، وتَغوُّل الفجور.

التحـــوُّل

وبينما هو في غَمرة أذكاره، وتسبيحاته.. إذ بزائر غريب يَلج الغار!

فينهَض محمَّد ليقِف وجهًا لوجه مع القادم الغريب، إنَّه يحمِل أنسامًا غريبة تُشبه أنسام الرجلَيْن اللَّذَيْن شقَّا صدره في الصغَر.

يَقترب، وكأنَّ السماء اقتربت منه، إنَّه يحمِل شذى السماء السابعة! وإحساسات ليست أرضيَّة على كل حال.

إنَّه جبريل أعظم ملائكة السماء.. لقد نزل ليوصِل لهذا الرجل رسالة خاصَّة من الله!

لقد بات محمَّد نقيًا لدرجة الصفاء البحْت، وبات داخله

سماء مليئة بالأنوار، وعالمًا مُتخَمًا بالطهر، وهذا هو الحيِّز المناسِب لتنزِل فيه أعظم رسالة، تتضاءل عن حملها الجبال الشامخة، ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾.

لقد بات محمَّد جاهزًا ليكون أشدَّ من جبال الدنيا جميعًا، وأطهرَ من مياه الكون بأكمله، وأنورَ من شموس المَجرَّة مجتمعةً.

يقترب جبريل من محمَّد، والاستغراب يُطوِّقه، والتساؤلات تَنهال بغزارة، فإذا بصوت جبريل المُتخَم بالوحي يملأ الغار الذي في الجبل، والجبل الذي في الغار بالرهبة، والهيبة، والحب:

(اقــــرَأْ)..

إن شيئًا عظيمًا، مفتاح عظمته أنَّه يُقرَأ، سينزِل عليك الآن!

إن أوَّل كلمات الله المقدَّسة ستُلامس شَغاف قلبك بعد دقيقة..

يجب على خلاياك في هذه اللحظة أن تتهيأ تهيُّؤًا خاصًّا..

(اقرَأْ)..

فيُجيب محمَّد: ما أنا بقارئ..

أنا لا أُفرِّق بين الألِف والباء، ولا أُجيد مَسك القلم، ولم أتعلَّم كيف تُنطَق الحروف المكتوبة، فكيف أقرأ!

فيَضمُّه جبريل ضمَّةً ظنَّ محمَّد أنَّها الموت! لشدَّتها، وقوَّتها.

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، إن القول الثقيل بحاجة إلى رمز يَشي بثِقَله، وإرهاص يتحدَّث عن عظمته، ورسالة تذكُر شدَّته.. فكانت تلك الغطَّة والغتَّة والضمَّة إيذانًا بأن شيئًا سماويًّا جليلًا سيضمُّ تلك الأنوار التي في صدرك، ويجعلها تتدفَّق لا على مكَّة فحسْبُ، بل على القارَّات السبع، لينتهي عهد الظلام في هذا الكون المظلم.

فيَتركه جبريل، ويُعيد عليه: (اقرَأ)..

فيُعيد محمَّد مَقولته: ما أنا بقارئ..

فيَعودُ جبريل ليَضُمَّه الضمَّة الثانية، تأكيدًا وتثبيتًا لمبدأ ثِقل الرسالة، وعظمة الوحي، وصعوبة المرحلة.

ثم يترُكه، ويُعيد نفس الكلْمة: (اقرَأ)..

فيُعيد نفس الجواب: ما أنا بقارئ..

فتَعود تلك الضمَّة الشديدة، التي تُشبه الموت لشدَّتها،

وتُشبه الحياة لعظمتها.. وكأنَّ الموت والحياة تحالَفا في لحظة ليُشكِّلا بداية موت الوثنية، وحياة النور!

وهنا يتوقف الكون مصغيًا لأول الرسائل القادمة من السماء إلى الأرض، وأوَّل خيوط النور الإلهي المتسلل عبر أبواب السماء العالية: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

هكذا قالها جبريل.. فما بَقِيَت خليَّة في جسد محمَّد ﷺ إلَّا وأحبَّت.. وما بَقِيَت ذرَّة في مساحات الكون الهائل إلَّا واستبشَرت.. إنَّها اللحظة التي تَحوَّل فيها محمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشيُّ من محمَّد إلى النبيِّ محمَّد، ومن الرجل الطيب الصالح الصادق الأمين إلى النبيِّ العظيم ﷺ، ومن أحد العالَمين، إلى رحمة العالَمين.

إن نزول النبوَّة على شخص كان قبل لحظات شخصيَّة عاديَّة، ثم وبعد لحظات تحوَّل إلى شخصيَّة عظيمة، بل وأعظم شخص في الوجود لا ينبغي أن تُتصوَّر هيِّنةً، أو عاديَّة، إنَّها أثقل من الجبال نفسها، وأغرب من الوجود ذاته، وأهيب من إشعاعات الشمس عينها.

إن ما حدث في غار حراء، تلك اللحظات أصعب من أن يُعَبّر عنه بالأحرف الثمانية والعشرين، مهما شكّلتَها، وأعدتَها، وغيّرْتَ مواضِعَها.. إنّها النبوّة، والرسالة، والاصطفاء في لحظاته الأولى.

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، إنَّه الله الذي جعل الرسالة تهبِط على قلب بشَري غافل عن معنى الرسالة، وعن ترَقُّب الرسالة، وعن إرادة أن يكون رسولًا، ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾.

لذلك فبعد أن خرج جبريل من الغار، تبِعَه النبي ﷺ وهو يرجُف، خوفًا، ورهبةً، واستغرابًا، ونزل من الجبل وكأنّه حديث عهد بزلزال شديد، أو كأنَّ براكين ضياء ثائرة في داخله.

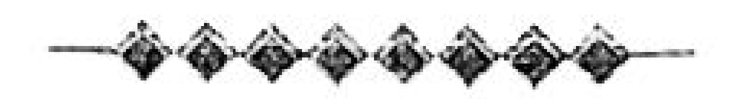
وصل إلى زوجه الطاهرة الصالحة خديجة وهو يرجُف، ويقول لها: «دثّروني، دثّروني»، إنّه أشدُّ برد يُصاب به إنسان! إنّه البرد الذي يعقُب التحوّل من الرجل الذي يأكُل الطعام، ويمشي في الأسواق إلى الرجل الذي يَنزِل عليه خبر السماء في الصباح والمساء.

جمعت خديجة ما في بيتها من الأكسية والأغطية، ثم جعلتها عليه، إلى أن سكَن، ثم سألته عن خبره، فأخبرها بما رأى، وما أحسَّ، وما سمِع.. فقالت: كلَّا والله، لا يُخزيك الله أبدًا.

فكانت هذه الكلمة التي قالتها خديجة رضي الله عنها شعارًا لكل فصول حياة هذا الرجل النبيل، والذي لم يجِدِ الخزيَ في حياته، بل وجد الله معه، مؤيِّدًا ونصيرًا، ومُعينًا وظهيرًا.

مضت الأيام، وباتت النبوَّة جزءًا لا يتجزَّأ من محمَّد ﷺ، وصار له أتباع اهتَدَوْا بهَديه، واستنُّوا بسُنَّته، وبات له خصوم نابَذوه العَداء، وشَنُّوا عليه الحروب المعنويَّة والحسيَّة.. وصار محمَّد قصَّة تُروى، وهداية يُستَرشَد بها.. صار نورًا وظلًّا، وهُدًى للعالَمين.

صار رمز النُّبْل، والحب، والوفاء.. وها نحن نعيش في هذا الكتاب مع نُبله، وحبِّه، ووفائه.. مع شجاعته، ورحمته، وإلهامه.. مع أخلاقه النبيلة، وصفاته الجليلة.





المعجَمُ الــوَرْديّ

«لو رآك النبيُّ ﷺ لأحبّك..»

عبد الله بن مسعود ﷺ

الرجل النبيل

علي جابر الفيفي

كان ﷺ قلبًا ينثرُ الحبَّ ذات اليمين وذات الشِّمال؛ فصنع منه الحبُّ شذًى خالدًا، لا يمكن نسيانُه، حتى إن صحابته الذين كانوا قبل بعثته عربًا عجَنتْهم الصحراءُ بمِزاجها الشاحب، وشُموستها الغاضبة: باتوا بعد أن تناوَلَ نفوسَهم بمِبضَعه أرواحًا تعشق الحبَّ، وتُنشِد له، وتتموَّجُ مع ألحانه.

لقَد نفَضَ عنهم اللونَ الأصفر الكالح؛ فباتت أرواحُهم وَرْدية اللون.

لقَد وجدهم محمَّد ﷺ رجالًا يدفنون بناتِهم؛ لأنهنَّ إناث، ويعُدُّون المرأة عارًا، ويقتل أحدهم أخاه؛ لأجلِ صُرَّة نقود!

فأعاد صياغتَهم من جديد، مستخدِمًا (إكسيرَ) الحب؛ فخرجوا خَلْقًا جديدًا كأن لم يتباغضوا بالأمس!

هذا عمرُ رضي الله عنه، ذو النفس الشديدة في ذاتِ الله، يعبِّرُ ذاتَ مساء عَذْبِ النسمات أنه يتمنى لو أنَّ لديه بيتًا مليئًا برجالٍ مثل أبي عُبيدة.

وهذا أبو ذرٍّ رضي الله عنه يضع خَدَّهُ على الأرض آمرًا بلالًا رضي الله عنه

عنه أن يطأَهُ بقدمه؛ لأنَّه جرَحَهُ بكلمة لا تَلِيقُ ببلال، فيُنهِضُه بلالٌ ويعانقه.

وهذا سعدُ بن أبي وقَّاص ﷺ عنه يمشي بين يدَيْ جنازة عبد الرحمن بن عوف ﷺ عنه خائرَ القُوَى، مُنهَكَ النفس، يقول بصوتٍ متشقِّق: واجَبلاه.

لقد صارت أنفسهم تفهم شيئًا اسمُهُ الحب، بعد أن كان الحب بالنسبة إليهم لغةً لا يمكن فَكُّ رموزها!

إنها عبقريةُ الحب، التي استطاع بها النبيُّ ﷺ أن يعيد إنتاجَ تلك الأنفس؛ فانتفضت فيها الحياةُ، وانبعثت منها نسائمُ العِطر..

لا أدري..

في طريقِ عودة النبي ﷺ من الحُدَيبيَة، كانت مشاعرُ المسلمين في أعلى مستويات الكآبة؛ إذ إنهم - وكان هذا اعتقادَهم في تلك الساعات - لم يجنُوا من سفرِهم ذاك إلاَّ تعبَ الطريق؛ فلم يعتمروا، ولم يكحِّلوا أعينَهم برؤية الكعبة المشرَّفة، بل لقد وُقِّعَ بينهم وبين المشركين صلحٌ ظنُّوا بنوده كلها في صالح خَصمهم!

في هذا الطريق المليء بالإنهاك، إذا بالبشرى تنزلُ من السماء؛ يقول تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾.

وكانت هذه المغانمُ هي فَتْحَ خيبر، وقد قدَّمتُ بهذا لتعلم كيف أن فتحَ خيبر كان سعادة وبِشارة، وغَسْلًا لأرواح أنهكها صُلْحُ الحديبية، الذي لم يرَ الصحابة بعدُ كيف أنه فتحٌ مبين، وعزٌّ وتمكين!

وبعد أن تحقَّق ذلك النصرُ في خيبر للنبي ﷺ، وكان شيئًا كالهديةِ من الله، بلا كثير عناءٍ، ولا كبير مشقة: نالوا فيه مغانمَ وصفها الله تعالى بالكثيرة!

وفي طريق العودة من خيبر، إذا بصديقٍ قديم، وقريب حبيب، وحبٌّ عميق يظهر في الطريق.. إنه جعفرُ بن أبي طالب، بعد غياب دام أكثر من عشَرة أعوام، كلها شوقٌ ممضٌّ لرفيق الأيام الأُولى من الإسلام، فيُلغِي النبيُّ ﷺ مراسمَ اللقاءات الرسمية، ويعانق جعفرًا بحرارة، ويقبِّل بين عينيه، وكأنه يُودِعُهُ أشواقَ السنوات الرهيبة من عُمُرِ الدعوة.

ثم بكل حبٍّ، وبكل قلب مفعَمٍ بالأشواق يهتف: «ما

أدري بأيهما أفرح: بقدوم جعفر، أم بفتحِ خيبر؟»[1].

فيجعل لقاءَ ابن عمّه وصديقه القديم: في كِفَّة موازِية لذلك الفتح الذي كان سعادةً وعِزًّا وبِشارة!

إنها طاقةُ الحب العجيبة في قلب هذا الرسول العظيم ﷺ.

ثم مَن؟

كان النبي ﷺ يُشعِرُ كلَّ فرد ممن حوله أنه استأثره بذِرْوة الحب؛ لِما يريه مِن احتفائه الخاص به، وإقباله عليه، وتبسُّمه له.

فهذا عمرُو بن العاص رضي الله عنه كان يتلقَّاه النبيُّ ﷺ دائمًا بالابتسامةِ والاهتمام، فما إن يضُمُّهما بيت، أو يجمعهما حديث حتى تأخذ مشاعرُ الحب ترفرف كطيورٍ بيضاء، وشعور الودِّ يتعاظم إلى درجة أن عَمرًا اعتقد مع الأيام أنه أحَبُّ الناسِ إلى النبي ﷺ؛ فليس من معهودِ عمرٍو أن مثلَ هذا القدر من الحب يخرُجُ إلا لإنسان يكون الأثيرَ والأحبَّ والأقربَ عند صاحبه وجليسه ورفيقه.

وتوَّج النبيُّ ﷺ ذلك الاهتمام الخاص بأن بعثَهُ على رأس جيش غزوة ذاتِ السلاسل، فوجد عمرٌو أن الفرصة سانحةٌ

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك.

ليكتشفَ الحقيقة، فأقبل إلى النبيِّ ﷺ وسأله: أيُّ الناس أحبُّ إليك؟ فعاش لحظاتٍ انتظار سماعِ اسمه في أعلى القائمة، فإذا بالإجابة تأتي: عائشةُ! فقال عمروٌ: من الرجال؟ فقال النبي ﷺ: أبوها.. فكأنَّ خيبةً ما مسّتْ قلبَ عمرو، فقال والأملُ ما زال يلوح: ثم مَن؟ قال: عمر بن الخطاب.. وما زال عمرو يقول: ثم مَن؟ وتأتي الأسماء، ولا يكون منهم عمرٌو"[1].

لا شكَّ أن عَمْرًا سيكون في القائمة، ولكنَّ اسمَهُ سيأتي متأخرًا بعض الشيء، فما زال أحبابه الأوّلون يعيشون في ذاكرته، ويتحرّكون في دمائه.

ولكن أجِبْني الآن: ما الذي جعل عَمْرًا يظُنُّ أنه الأحب؟

أليست عبقرية الحبِّ التي استطاع النبي ﷺ أن يسَعَ بها كلَّ مَن حَوله؟

المعجَمُ الـــوَرْديُّ

كان للحبِّ مفهومٌ خاص عند النبي ﷺ. فالحبُّ - كما في معجَمه الوَرْدي - رزقٌ يُرزَقُهُ العبد؛ فإذا خفَقَ قلبٌ لقلب،

---

(١) القصة في البخاري.

فهذا لأن اللهَ أراد لذلك القلب أن يخفُقَ.

قال متحدِّثًا عن خديجة رضي الله عنها بعد موتها: «إني قد رُزِقتُ حبَّها»[1]، هكذا هو الحبُّ؛ شيءٌ يأتي من الله، لا حيلةَ للقلب فيه.

وكان يَقسِمُ بين نسائه فيَعدِل بينهنَّ، ولكن كان في قلبِهِ حبٌّ واضحٌ لعائشة، حبٌّ لا يخفى على أحد.

إذًا فخفَقاتُ القلب لإنسانٍ ما، وميلُ الرُّوح إلى رُوحٍ ما: ليست مما يَملِكُهُ الإنسان؛ لذلك فما كان للنبيِّ ﷺ أن يعاند هذه الإرادةَ الإلهية في قلبه، بل كان يميلُ مع إرادة الـمَلِكِ سبحانه في غير ظُلْمٍ، أو قطيعةِ رحم.

كان يتساءل ﷺ في مرَضِ موته في كلِّ ليلة: أين سأكونُ في الغد؟ متعجِّلًا اليوم الذي يصبح وهو عند حبيبتِهِ عائشةَ!

إنه الحبُّ الأقوى مِن كل شيء، الذي يَغلِبُ كلَّ شيء، ويتجاوز كلَّ شيء.

---

(١) رواه مسلم.

أُحِبُّك

يمشي مُعاذٌ ذاتَ يوم، يمشي كما يمشي الآلاف، لم يكن يعتقدُ أنه على موعدٍ بعد لحظات مع أجملِ كلمةٍ يمكن لأذنيه سماعُها في حياته كلِّها.

فإذا بالنبيِّ ﷺ يقترب منه، ويُمسِك بيده..

أيُّ دفءٍ يخطِّطُ النبي ﷺ أن يغمُرَ مُعاذًا به؟

ثم يقول: «يا مُعاذُ، والله إني أُحِبُّكَ»[1].

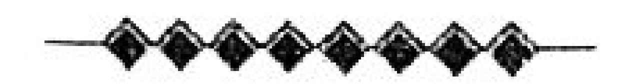
يا مُعاذُ، يمكنك أن تتوقَّفَ الآن عن المسير، وعن الكلام، وعن كل شيء؛ فالنبيُّ ﷺ يحبُّك!

يا معاذُ، ما قيمةُ الحياةِ بعد هذه اللحظة الباذخة؟

ما حجمُ الفَرْحة التي أحاطت بك مِن جميع الجهات؟

ما هيئةُ الألوان التي انتثرت أمامك الآن؟

النبيُّ ﷺ يحبُّك!



---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

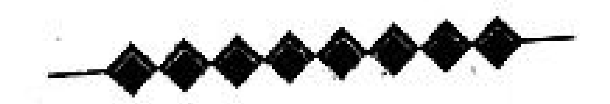
أتعلمُ لماذا كان عليٌّ بن أبي طالب ﷺ عنه يحبُّ أن يكنّيَهُ الناسُ بأبي تراب؟!

اسـمـعِ القصـة:

جاء رسولُ الله ﷺ بيتَ فاطمة، فلم يَجِدْ عليًّا في البيت، فقال: «أين ابنُ عمِّك؟»، فقالت: كان بيني وبينه شيءٌ، فغاضَبَني، فخرَجَ، فلم يَقِلْ عندي، فقال رسولُ الله ﷺ لإنسانٍ: «انظُرْ أين هو؟»، فجاء فقال: يا رسولَ الله، هو في المسجد راقدٌ، فجاءه رسولُ الله ﷺ وهو مضطجعٌ، قد سقط رداؤُهُ عن شِقِّهِ، فأصابه ترابٌ، فجعل رسولُ الله ﷺ يمسحه عنه، ويقولُ: «قُمْ أبا التراب، قُمْ أبا التراب»[1].

تأمَّل: الرجُلُ الذي اختاره اللهُ ليكون رسولَهُ إلى الثَّقَلينِ، ويُنزِلُ عليه آخِرَ شرائعه: يمسح الترابَ عن أحد صحابته! ويقول متحبِّبًا متودِّدًا: «قُمْ أبا تراب».

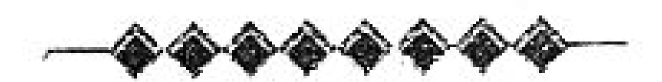
فكانت هذه الكُنْيةُ الدافئة أحَبَّ ما يمكن لعليٍّ ﷺ أن يَسمَعَهُ، أو أن يُنادى به.



---

(١) رواه البخاري ومسلم.

هناك أمورٌ لا يُتصوَّرُ تعدُّدها؛ منها: الحبُّ؛ فالحبُّ فيضٌ لا يُتصوَّرُ أن يكونَ متعدِّدَ الأقدار، ولكنَّ حبَّ النبي ﷺ يتعاظم مرَّةً، ويتعدَّد مرة؛ فقد بعثه اللهُ بالحب كما بعثه بالرحمة؛ قال ﷺ لأحدِ أصحابه: «يا أبا يزيدَ، إني أُحِبُّك حُبَّيْنِ: لقرابتِك، ولحُبِّ عمِّي لك»[1].



أتاه رجُلٌ يُعلِنُ عن حبِّهِ لأحدِ المسلمين، فلم يكتفِ النبيُّ ﷺ بالتربيتِ على تلك المشاعر، بل أمَرَهُ: «قُمْ، فأعلِمْهُ..»[2].

الحبُّ ثقافةٌ يجب أن تنتشر، ولغةٌ يجب أن تُدرَّسَ وأحاسيسُ يجب أن تُبثَّ في الحياة.

ويعبِّرُ ﷺ عن حبِّهِ لزيدِ بن حارثة بطريقةٍ ملأَها بالحنانِ والرحمة، فقال له ذاتَ يوم: «يا زيدُ، أنت مولايَ، ومِنِّي، وإليَّ، وأحَبُّ القومِ إليَّ»[3].

---

(١) قال عنه الذهبي روي من وجوه مرسلة.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

(٣) رواه أحمد والحاكم، وحسّنه ابن حجر في الإصابة.

وكأنّي بزيدٍ يمرُّ بعينيه على أولئك القومِ ليتخايَلَ القمة التي وضعه عليها الرجُلُ النبيل ﷺ لـمّا قال له: «وأَحَبُّ القوم»!

وكما كان يصُوغُ الحبَّ كلماتٍ وقُبُلاتٍ، فقد صاغه بطريقةٍ نادرة تُجهِشُ لها الحياةُ؛ فهذا سعدُ بن مُعاذٍ كان يُمرَّضُ من جِراحةٍ أصابته، وقد أوشك على أن يَبرأ، وقد باتت أجواءُ المدينة مرتبكةً، انتظارًا لشفاء ذلك السيدِ العظيم.

وفجأةً وبلا مقدِّمات، إذا بجبريلَ عليه السلام يَنزِلُ، فيلاقي النبيَّ ﷺ ويسأله: مَن هذا العبدُ الصالح الذي مات؟ فُتِحتْ له أبوابُ السماء، وتحرَّكَ له العرشُ[1]..

فذُهِلَ النبيُّ ﷺ، وتذكَّرَ سعدًا، فهُرِعَ إلى خيمتِهِ، فإذا جُرْحِهِ قد انفجر، ودماؤه تُثعَبُ، فاعتنقَهُ والدماءُ تتدفَّقُ على وجهه الشريف ولِحيته.. ومعاني الحزنِ العميق يقرؤُها الكبارُ والصِّغار على ملامح الرجُلِ النبيل.

فدخل أبو بكرٍ الصِّديق ﷺ في تلك اللحظةِ الرهيبة ورأى ما رأى، فقال: وانكسارَ ظَهْراه على سعدٍ.. ثم دخل على إثره

---

(١) خبر اهتزاز العرش لموت سعد في البخاري وغيره.

عمرُ ﷺ، ورأى ما رأى، فقال بحنينٍ تتكسَّرُ له الصخور ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ!﴾[1].

تقول عائشةُ رضي الله عنها: «ما كان أحدٌ أشَدَّ فَقْدًا على المسلمين بعد النبي ﷺ وصاحبيه مِن سعد بن مُعاذ»[2]..

هذا هو النبيُّ ﷺ، وهذا هو الحبُّ الذي زرعه وسقاه في قلوبِ أصحابه، وهذا هو سعدٌ الذي ارتجَّتْ له المدينة، واهتَزَّ له قبل ذلك عرشُ الرحمن.

الحياة كالحةٌ، وإذا لم نعالجها بشيءٍ من الحب ستُصِيبنا بداءِ المشيم، فنتفتَّتُ دون أن نشعُرَ.

«قُمْ فأعلِمْهُ»؛ حتى تغدوَ كلمةُ الحب هي السحابةَ التي تظلِّلُ المدينةَ النبوية، فتَهطِل أمطارٌ تُشبِهُ الأشواقَ التي تطفئ لهيبَ الصحراء مِن أرواحٍ أرهَقَها الجدبُ.

حتى بعد وفاته ﷺ بات الحبُّ ثقافةً، وصارت المعاييرُ النبوية للحبِّ معلومةً، فيستطيع الجميعُ أن يَعلَموا ما الأشياء

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد في فضائل الصحابة.

(٢) أخرجه ابن سعد، وأحمد في فضائل الصحابة.

التي لو كان النبيُّ ﷺ حيًا لأحَبَّها!

ينظرُ ابن مسعودٍ إلى الرَّبيع بن خُثَيم، ذلك العابدِ الذي يمشي في طرقاتِ الحياة وكأنه يرى الجنَّةَ والنار في طريقه، فيقول له ابنُ مسعود: يا أبا يزيدَ، لو رآك النبيُّ ﷺ، لأحَبَّك!

إن نفسَ الرَّبيع من النفوس التي يحبُّ النبي ﷺ خشوعَها، وإخباتَها، وضياعَ الحياة في عينيها..

مِن النفوس التي تقرَّرَ لدى الصحابةِ أنها محبوبةٌ لدى الرجُلِ النبيل عليه الصلاة السلام، الذي جعل للحب قوانينَ يَفهَمُها صحابتُهُ جيدًا؛ لكثرة ما يُخبِرهم عمَّا يحبُّ، وعما ينبغي أن يكون جميلًا محبوبًا لديهم..

تباريـحُ الشـوقِ

يخرُجُ النبيُّ ﷺ ذاتَ يوم ومعه مَن معه من صحابته، يخرج قاصدًا المقبرة، ذلك الصندوقَ المبهَمَ الذي يحوي أناسًا دافَعوا عنه في يوم من الأيام، يحوي أناسًا اعتنقوا دِينَه، وآمنوا بمبادئه، وبذلوا أرواحَهم لنصرةِ الحق، يأتيهم ليخُصَّهم بدعاء ممزوجٍ بلهفة الشوق، وكأن الشوق يذكُرُ بالشوق:

وأبــرَحُ ما يكونُ الشوقُ حِينـًا

إذا دنَــتِ الخِيَامُ مِــن الخِيَـــامِ

فينظر إلى صحابتِهِ ويقول: «وَدِدتُ أَنَّا قد رأينا إخوانَنا!»[1]، تعجَّبَ الصحابةُ الذين يحيطون به، وفي اعتقادهم أنهم إخوةٌ له، فقالوا: أوَلسنا إخوانَك يا رسول الله؟ فقال النبي ﷺ: «أنتم أصحابي، وإخواني الذين لم يأتوا بعدُ».

إن ملامحَ وجهك، ونبراتِ صوتك، وجمالَ أحاديثك: مما كان النبيُّ ﷺ يتمنى أنْ لو رآها، وسمعها، وعاش معها.

هناك انكسارٌ ما في قلبِ الرجُلِ النبيل، انكسارُ شوقٍ، وحنين خاص لا يمكن التعبيرُ عنه باللغة، ولكن زفرات الشوق هي مَن تعبِّرُ عنه: «وَدِدْنا أنَّا قد رأينا إخواننا».

يتحدَّثُ ذاتَ شوقٍ وشيءٌ أقدَسُ من الدموع يلُوحُ في أحرفه: «مَن أشَدُّ أمَّتي لي حبًّا: ناسٌ يكونون بعدي، يوَدُّ أحدهم لو رآني بأهلِه وماله»[2].

---

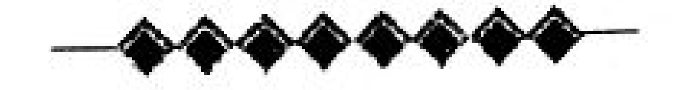
(١) رواه مسلم.

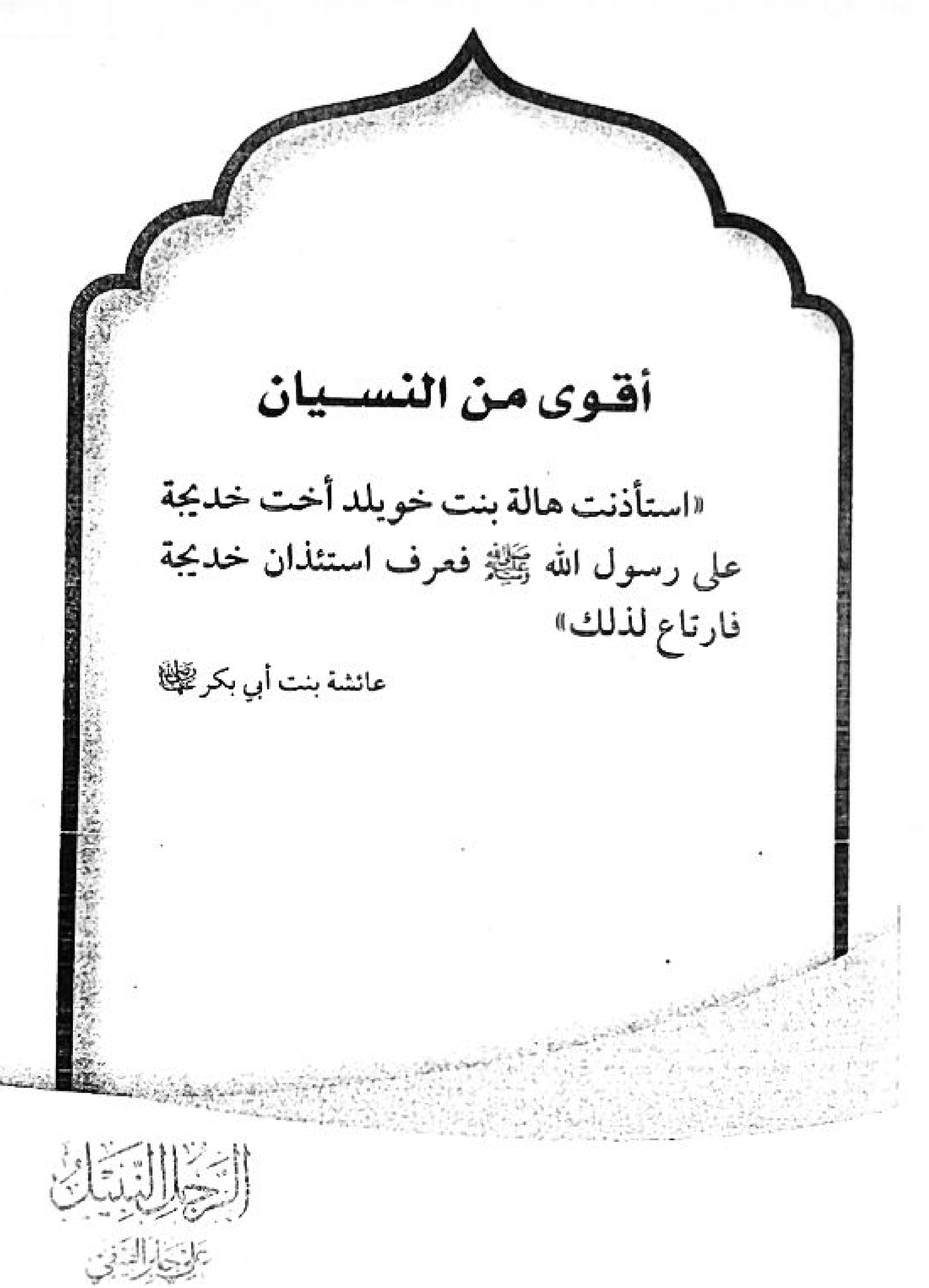
(٢) رواه مسلم.

هل خطرَ ببالك أن هذا النبيَّ المهمومَ بدعوته، والمشغول بأحداثِ زمنه المَوَّار، والمنصرف لتدبير شؤون دولته: سيعبِّرُ يومًا ما عن شوقِهِ إليك؟

نعم شوقُهُ إليك أنت أيها القارئ!

لقد كان النبي مشتاقًا إليك، حَدِبًا عليك، يتمنَّى أن يراك، وأن يجلس معك، وأن يحدِّثك حديثًا مليئًا بالحب.





أقوى من النسيان

«استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك»

عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها

أقــوى من النسيــان

الحب لا يكتمل إلّا بالوفاء، كثيرون هم الذين يُحبُّون، وقليل مَن يحتفظ بهذا الحب، ويحمي حماه، ويَسقيه نُبلًا ومروءةً ووفاءً.

كان ﷺ محبًا، ولكن لا يمكن أن يُحبَّ، ثم يَنسى حبَّه بسهولة، فإن كان الحبُّ هو الحلقة الأولى من سلسلة المشاعر، فإن الوفاء هو الحلقة الأخيرة، والأبديَّة من هذه السلسلة.

أوّلا وثانيًـا وثالثًـا..

يَحدُث بين أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه وعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه ما يَحدُث بين الأصحاب، مُلاحاة، أو ما نُسمِّيه نحن (مُشكلة)، تجعل عمر يذهب إلى النبي ﷺ ليشكوَ أبا بكر، فعندما جاء أبو بكر رأى أمارات الغضب على وجه النبي ﷺ فخاف على صاحبه فقال: يا رسول الله، والله أنا كنتُ أظلمَ! فاعترف أبو بكر بأنَّ الحقَّ مع عمر في هذه القضيَّة، فدَعْنا ننظر ماذا فعل الوفاء.

لقد تزايد شعور الغضب في نفس النبي ﷺ، وأرسل خطابًا يَسمَعه الجميع، ويَفهَمه الجميع: عمر وغير عمر -رضوان الله عنهم أجمعين- فقال: «هل أنتم تارِكون لي صاحِبي؟»[1].

هذا أقرب الناس إلى قلبي، هذا الذي استأثرته بحبي وشوقي وحنيني، هذا الذي كنتُ أمشي في أزقَّة مكَّة، رجلًا تُطاردني الأنظمة، كل مَن يقترب منِّي يَغدو مطلوبًا، أو محكومًا عليه بالإعدام، أو بالسجن، أو بتشويه السمعة، فابتعد لذلك عنِّي الأقربون، ولكنَّ أبا بكر في تلك الأثناء، وفي تلك الظروف الحالكة اقترب منِّي، وأبى أن يَنزِعَ يدَه من يَدي، مُتحمِّلًا سُخرية أبي جهل، ولسان أبي لهب، وتسلُّط أميَّة بن خلف، ومُضايقة عُتبة بن ربيعة.

«هل أنتم تارِكون لي صاحبي؟»

صَدَّقني حين كَذَّبني الناسُ، وآواني حين طَرَدني الناسُ..

لم ينسَ النبي ﷺ بعد سنوات وسنوات تلك القدم التي أدخلها أبو بكر يوم الهجرة في جُحر العقرب، حتى يمنع العقرب أن تصل إلى النبي ﷺ! لم ينسَ أيام مكَّة الساخنة

---

(١) رواه البخاري.

جدًّا، وكيف أن أبا بكر كان يقف بينه وبين سياط السخرية القرشيَّة!

فيُجيب عنه، ويُدافع عنه، ويقول بكل شموخ: إنْ قالها فقد صدَق.

لم ينسَ النبي ﷺ ذلك التاريخ الأبيض الناصع؛ لذلك فلم يتأمَّل حَيْثيَّات الخلاف بين أبي بكر وعمر، بل دعا عمر ودعا جميع الصحابة للنظر إلى تاريخ الأشخاص، وسابقة الأقوام، وألَّا يَنْسَوُا الحبَّ بينَهم.

ماذا تَعني في هذا السياق مشكلة عابرة يا عمر، تكون بينكَ وبين أبي بكر؟ أنسيتَ أبا بكر؟ أنسيتَ مَن هو أبو بكر؟ أنسيتَ السنوات التي لم يكُن في سِجل الإسلام غير أبي بكر؟ إذنْ فلتحترق جميع المشاكل، ولتتهشَّم جميع القضايا، ويبقى أبو بكر أوَّلًا.. وثانيًا.. وثالثًا

عرَفنَا الحزنَ

ويظهر الوفاء أيضًا عند لحظات الوداع الأخيرة، لما يُفارق الصَّديق صديقَه، وينخلع المحبُّ عن جزء من رُوحه، عندما يتيقَّن أنْ لا لقاءَ سيكون بينه وبين حبيبه.

تقول عائشة ﷺ: لَمَّا جاءت وفاة جعفر عرَفْنا الحزن في وجه النبي ﷺ"[1].

جعفر ابن عمِّ النبي ﷺ، والذي كانت فرحة النبي بعودته من الحبشة مساوية، أو مقاربة لفرحه بفتح خيبر، فكيف سيمرُّ نبأ وفاته على قلب النبي ﷺ، وكيف سيستطيع أن يتجاوَزَ الخَطْب بلا شيء من الدموع، وشيء من الحزن، وشيء من الشوق المُمِضّ؟

سفح الجبل

وهذا حمزة، ذلك الأسد الذي أسلم فبات ضعفاء المسلمين بعد إسلامه في مَنَعة وقوّة، كيف للوفيِّ أن يُعبِّر عن لحظات فراقه؟

كان يمشي بين قتلى أُحُـد، ونزيف في أعمق نقطة من فؤاده يعصف به، فرأى من بين الجموع حبيبه حمزة، فبدأت دموعه تشقُّ طريقها بصمت، وقدماه تتجهان صوبَ صديق الطفولة، فلما وقف أمام ذلك الجسد الطاهر، ورأى ما فعله وحشيٌّ بجثّة حمزة: شهِق.

---

(١) رواه أحمد، وصححه شعيب الأرناؤوط.

لم يستطع أن يكون هادئًا ﷺ في مقابل ما تفعله النفوس المتوحشة بأجمل ما في الكون من نُبل.

وفي طريق العودة من المعركة، ما إن دخل النبي ﷺ المدينة حتى سمِع نساء الأنصار يَندُبْنَ ويَبكِينَ هَلْكاهُنَّ، فتذكَّر حمزة، تذكَّر الدم والقرابة، تذكَّر التاريخ الناصع، والذكريات الشامخة، تذكَّر صوته الأجشَّ، تذكَّر شجاعته وإقدامه، تذكَّر الدفء الذي يشعُر به، إذ كان بقربه، ولا أحد يبكي عليه! وكأنَّ قَدْرًا عظيمًا من الحسرة، أو كأنَّها عاصفة حزن نبيل عصفت بنفسه عندما قال: «لكنَّ حمزةَ لا بواكيَ له»![1]

حتى في البكاء يظهَر وفاءُ هذا النبيل العظيم.

وتمرُّ الأيام والليالي، فتظهَر في مُخيِّلة النبي ﷺ تلك الأوجه المشرقة، أوجه أولئك الذين استشهدوا عند جبل أُحُد، وجه حمزة ومَن معه من رفاق الأمس، فيقول بحسرة لا تُذبِلها الأيام: «أمَا واللهِ لوَدِدْتُ أنِّي غُودِرْتُ مع أصحابِ (سَفحِ) الجبلِ»[2]

---

(١) رواه أحمد، وصححه شاكر

(٢) رواه أحمد، وحسّنه شعيب، ونص الحديث «نُحص الجبل» وقد أتيت بالمعنى الذي ذكره العلماء، ليفهمه القارئ.

يَتمنّى أنّه قضى نَحبَه مع أحبابه، يَتمنّى أنّه مات مع حمزةَ.

اللهم هالة

الفراق في الحياة حتم لا بدَّ منه، وقد فارق النبيَّ ﷺ أحبُّ الناس إليه، خديجة بنت خويلد رضي الله عنها تلك الرائعة التي ضحّت من أجل حبيبها، ونصرته بمالها، وبعقلها، وبحكمتها، وكانت معه في أحلك الظروف.

ليست المشكلة في الفقد، المشكلة تكمُن فيما بعد الفقد! عندما تندمِل الجروح، وتنسى الروح شيئًا من التفاصيل، ثم فجأة وبلا مقدِّمات يعود ذلك الراحل بتفاصيله، يعود بصوته، وبإحساسك تجاهه، هنا لا تسأل عن الرَّوْع الذي يَدهَمك.

جاءت هالة بنت خويلد أخت خديجة رضي الله عنها إلى المدينة، والنبي ﷺ قد شغَلته الدولة التي أرسى دعائمها، والأحداث التي خاض غِمارها، والمعارك التي قاد كتائبها عن أن يتفقّد خديجة في خَلَجات نفسه، لقد خفَتَ شيء من حدّة الذكرى.. وفجأة تأتي هالة، وتستأذن عليه، فيسمَع صوتها، تقول عائشة رضي الله عنها: «استأذَنت هالةُ بنتُ خُوَيلد أخت خديجة على رسول

الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة (تذكَّر مخارج حروفها.. وتذكَّر الأيام) فارتاع لذلك، فقال: «اللهُمَّ هالةَ»[1] سأل الله أن يكون الصوت صوت هالة أخت خديجة! يريد أن يُرمِّم شيئًا من الذكريات في نفسه، يُريد أن يُكرم أخت حبيبته، وأن يُعيد بشيءٍ من الحديث معها شيئًا من الماضي الذي ذهب مع خديجة.

إنَّها قطعة وفاء نادرة، وتُحفة أخَّاذة لأصالة المعدِن، والتي جعلت هذا النبيل يرتاع لصوت امرأة ذكَّرته دفء الأيام الأولى.

نهش الرماح

ومن صور وفائه ﷺ أنَّه لم يسمح للنسيان أن يمحوَ أوجه أولئك الذين أحاطوه بحبِّهم، واتباعهم، وجاهدوا معه، ودافعوا عنه.

أولئك الذين نُسميهم بالصحابة، والذين باتت أهم صفاتهم أنَّهم صحِبوا الرجل النبيل، وكانوا معه في مَنشَطهم

---

(١) أصله في الصحيحين.

ومَكرَهم، هؤلاء الذين أعزَّ الله بهم دينه، وأعلى بهم كلمته، فلم يَنسَهم النبي ﷺ، ولم يترُكهم للتاريخ ليفعل بهم وبسِيَرهم ما يشاء، بل شدَّد على فضلهم، وأحقيَّتهم للحب والاحترام.

وكأنَّه علِم ﷺ بتعليم الله له أنَّ نابتة كاذبة خاطئة ستأتي في هذه الأزمنة وتَسُبُّ معاوية، وتُقلل من قدر خالد، وتتَّهم عائشة في عِرضها، وعمر في عدله، وأبا هُريرة في دينه! على صحابة النبي ﷺ رضوان الله، وعلى هؤلاء ما يستحقُّون.

يقول الوفيُّ في صحابته: «لا تَسُبُّوا أصحابي»[1]

أَلَا تكفي الرماح التي نَهَشَت أجسادهم من أجل لا إله إلَّا الله؟ أَلَا تكفي الهجرة التي برَّحت بأفئدتهم من أجل هذا الدِّين.. ثم يأتي مُتَكئ على أريكته يكذِب على كاتب الوحي؟ أو على الصِّدِّيقة بنت الصِّدِّيق؟

ثم يقول -وكأنَّه أراد أن يَقشَع غَمامة الغباء عن بعض الرؤوس-: «احْفَظوني في أصحابي»[2].

إذنْ فقد جعل الوفيُّ حفظهم من حفظه، وإجلالهم من

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه ابن عساكر.

إجلاله؛ إذ كيف ينقُل لك الدِّين مَن لا تُجلُّه، ويأتيك بهَدي النبي وسِيرته وسُنَّته مَن تزعُم أنتَ أنَّه كذَّاب!

ويقول ذات وفاء نادر، وكأنَّه يقف بين جموع الشتَّامين أولئك الذين لم يتطهَّروا من النفاق، وبين صحابتهم الكرام: «دَعوا لي أصحابي»[1].

اترُكوهم لي، فأنا أوْلى الناس بهم، وانصرفوا أنتم لغشِّكم، وكذبكم، وفجوركم.

وفاء للشهامة

وفاؤه ﷺ لم يكن لأصحابه، وأحبابه، وأولئك الذين جمعتهم معه أجمل الذكريات، وأحلى الأيام.

بل حتى أولئك الذين كذَّبوا بدِينه، وردُّوا دَعوته، ممَّن كانت لهم مواقف رُجوليَّة بَحْتة، فقد حفِظ عهدهم، ووفَّى بتلك المواقف.

فها هو واقف إزاءَ أسرى بدر، أولئك الذين خرجوا من مكَّة لحرب الدِّين، وإحراق الرسالة، وكسر راية الحق، فيتذكَّر

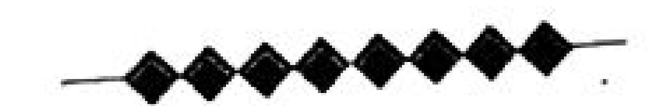
---

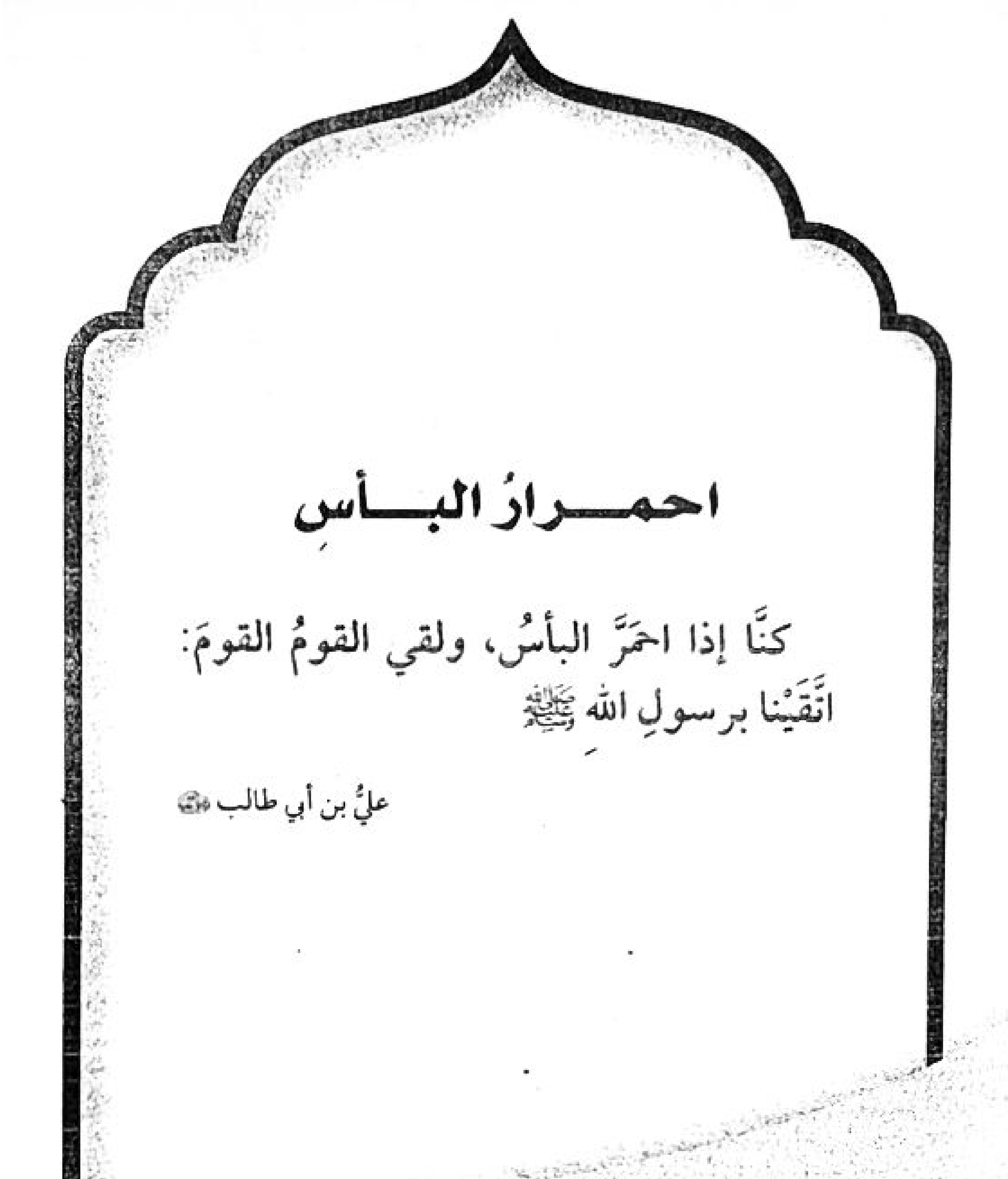
(١) رواه البزار.

المُطعِم بن عَديّ ذلك الرجل الذي أجاره عندما عاد من الطائف وحيدًا طَريدًا، ذلك الرجل الذي سجَّل موقِفًا شهمًا ضدَّ قومه الظلَمة أيام الشِّعْب، ومزَّقت يده صحيفة الجَوْر، تذكَّره وهو ينظر إلى أولئك الأوباش ثم قال لابنه الجُبَيْر: «لو كان أبوكَ حيًّا ثم كلَّمَني في هؤلاء لأطلَقْتُهم له».

إنَّه وفاء للشهامة، وتذكُّر لعهد الرجولة، وعدم إنكار لجميل رجل مات على الكفر!

والآن أخبرني هل في سيرة هذا العظيم مُتَّسع لغير الشهامة؟ وهل هناك جزء في شخصيَّته لم يتضمَّخ بعطر وفائه عليه الصلاة والسلام؟ وهل هناك نفس في هذا الوجود، يستطيع أن يفعل بها الوفاء ما فعل في نفس أعظم إنسان، وأنقى إنسان، وأنبل إنسان؟ عليه من الله أزكى الصلاة والسلام..





احمرارُ البأسِ

كنَّا إذا احمرَّ البأسُ، ولقي القومُ القومَ:
اتَّقَيْنا برسولِ الله ﷺ

علِيُّ بن أبي طالب رضي الله عنه

احمــــرارُ البـــأسِ

كان النبيُّ ﷺ عنوانَ الشجاعة والإقدام، بل لقد كانت عيناه فقط تدرُسانِ الشجاعةَ لأشاوسِ الصحابة، وأكابر المسلمين.

حتى إن صناديدَ الكفر كانوا يتحامَون ويتحاشَون أن تطولَ مدةُ مشاكَسته؛ لأنهم يعلَمون عن أيِّ أسدٍ سيُسفِرُ ذلك الاستفزازُ، وعن أي غَضْبٍ سينجلي غبارُ الموقف!

فهو شجاعُ الكلمة، شجاع الرأي، شجاع الموقف، وشجاع المعركة.. بل هو شجاع في حِلْمه، وفي تواضعه، وفي كلِّ أخلاقه؛ يقول عنه خالقُهُ سبحانه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

فمن أيِّ باب تَدلِفُ إلى سيرته عليه الصلاة والسلام، ستلقَى شجاعتَهُ وكأنها السِّمةُ البارزة، والتوقيع النهائي على مواقفه التي صنَعتْ سيرتَهُ العظمى، وأيامه الملأى بالذكريات.

۞ ويُدخِلك النارَ

مُلِئَ قلبُ النبي ﷺ بالبسالة؛ فلا تروِّعُهُ الأحداث الجِسام، ولا تُنْهِنِهُهُ المواقفُ الصعبة، بل تراه في كلِّ أحايينه جبلًا شامخًا لا تمَسُّ ذُرَاه بسُوءٍ.

كان يومًا يسير في مكة، فتلقَّاه أُبَيُّ بن خلَفٍ، وهو أحد فراعنةِ الكفر، وممن يُهاب جانبُهم كثيرًا.

مشكلةٌ إن كان خَصْمُك رجلًا هو أحدُ مقترَحات الكفر، ثم نفَّذته الدناءةُ بشكل عشوائي!

تلقَّاه هذا الرجلُ ذو الأخلاق الشرسة بعَظْمٍ حائل، ففتَّهُ بين يديه، ثم سأله بكِبْرٍ وغطرسة: أترى ربَّك يُحيِي هذا بعدَما قد أرَمَّ؟

شخَصتِ الأبصارُ إلى النبي ﷺ تنتظرُ كيف يجيب هذا الشيخَ المطاعَ أُبَيَّ بنَ خلف، فإذا به يقول، وبلا اهتمام لمكانته في قومه: «نعم! ويبعثُك، ويُدخِلُك النار!».

لقد داس النبيُّ ﷺ بكلمته تلك عِرْنينَ الكفر، ومرَّغه في الطين كما يجبُ، دون أن يضربَ حسابًا لهذا المتكبِّر الذي لا يؤمنُ بيوم الحساب.

يتحدَّثُ أهلُ السِّير: أن النبي ﷺ أقبل ذاتَ يوم يطوف بالبيت، فابتدره المستهزئون؛ هذا يَغمِز، وذاك يُقهقِهُ، والنبيُّ ﷺ كعادته يحلُمُ بهم، ويتغاضى، وكأنه ما رأى وما سمع، ولكن يبدو أن الأمرَ تجاوَزَ حدَّهُ، وبات التأخرُ في الرد يعطي انطباعًا بالخوف أكثرَ منه بالحِلم، فتوقف النبيُّ ﷺ عند جَمْعِهم، فصمتوا لوقوفه قبل أن يتكلَّم، ثم قال ثلاث كلماتٍ طاشت معها قهقهاتُهم، قال: «لقد جئتُكم بالذبح!»[1].

فقط هذه الكلمات جعلتهم يقومون ويتوسَّلون إليه أن يتجاوَزَ عنهم، فما عَهِدوه إلا الحليمَ الرشيد.

لقد علموا جيدًا أنه لا يقول إلا الحقَّ، وأنه إن قال: «لقد جئتُكم بالذبح»، فإن الذبحَ هو مصيرُهم، وهو ما حدَثَ بالفعل يوم بدرٍ!

يعلِّمُنا النبيُّ الكريم ﷺ أن الشجاعةَ ليست كلامًا طائشًا تُلقِيه على عواهنه، وتهديدًا أجوفَ لا طائل وراءه.. إن الشجاعةَ هي أن تَمِلكَ نفسك ما استطعتَ، ثم إن أبى

---

(١) ابن حبان في صحيحه.

خَصْمُك إلا استئصالَ باطله، وجاء وقتُ الكلام: فلا تتحدَّثْ إلا بحديثٍ يعلم صاحبُك أنك تَعنِي كل حرف منه، وأنَّك لا تهدِّدُ بقدر كونك تسلِّمُهُ خطَّتك لاستئصال شأفته، وتعطيه فكرةً واضحة عما ستفعله معه في الغد.

﷼ لــم تُراعـــوا..

لم يكُنِ النبي ﷺ يختبئ خلفَ الجموع، ويقف مِن وراء الفرسان، بل كان المتقدّم دائمًا..

يحدِّثنا أنسُ بن مالك ﵁: أن صوتًا غريبًا جاء مِن إحدى جهات المدينة، وقد كانت المدينةُ نقطةَ النور في بحرٍ من القبائل المشركة، وجموعٍ من الأعراب الغِلاظ، وكانت التهديداتُ تأتيها من مكَّة، ومن الطائف، ومن الرُّوم، ومن الفُرْسِ.. وقد كانت حياةُ المدينة حياةَ تعبئةٍ وجاهزية لأيِّ مداهَمة قد تغزو أطرافها.

فلعلَّ الناس والحالُ كما ذكرنا ظنُّوا ذلك الصوتَ صوتَ بعض فرسان العدوِّ المقبلين على المدينة غزاةً معتدِين، ففَزِعَ مَن فزع، وأخذ الفرسانُ يهتف بعضهم ببعض، ويستحث بعضهم بعضًا.. وقد سمع النبيُّ ﷺ ما سمع الناس، فلم

ينتظر كما انتظر الناس، بل هُرِعَ إلى فرَسٍ عُرْيٍ بلا سَرْجٍ لأبي طلحةَ، وانطلق كالعاصفة جهةَ الصوت وحده، يستكشفُ ويبحث عن أولئك المتسلّلين ببسالة الفارس، وشجاعةِ القلب الذي لا يَنبِض بالخوف.

لقد كان قلبًا شجاعًا، ونفسًا تَعصِف، وشرَرًا يتّقِد..

وفي هذه الأثناء، تجمَّعَ عددٌ لا بأس به من فرسان المدينة، وانطلقوا جهةَ الصوت، فإذا النبي ﷺ يُقبِل عليهم بوجهه الوضّاح، وثَغْره المتبسّم، وقد أنهى مهمَّةَ الاستكشافِ وهو يقول: «لم تُراعُوا.. لم تُراعُوا!»[1].

لا خوفَ على المدينة ومحمَّدٌ ﷺ فيها، حتى فرسانُ المدينة الأشاوسُ يحتاجون إليه عليه الصلاة والسلام ليكون في مقدِّمتهم في أمور الهلَعِ والرعب.

إن خُصُلاتِ شعَرِه المتناثرةَ وهو على فرَسِ أبي طلحة لَتُوحي للناظر من بعيد أن البطولةَ بدأ مَوسمها، وأن شيئًا من التفوُّقِ البشري الذي لا تُطيقه إلا نفسٌ صنعها اللهُ له،

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

واصطفاها لتبليغ رسالته: قد ظهَرَ على الكوكب، وأخذ يشعُّ بإشعاع لم يفهمه الكوكبُ بعدُ!

❀ احمــرارُ البــأس

كان عليُّ بن أبي طالب ﵁ مِن أعظَمِ مَن عُرِفَ بالشجاعة والإقدام، وكان أحدَ فرسان يوم بدرٍ الثلاثة، الذين لاقَوْا فرسانَ قُريشٍ الأقوياء، ففلَقَ هامَةَ صاحبه، وأرداه قتيلًا، وهو بعدُ شابٌّ طريٌّ، وفتًى يخوض في فتوَّته.

يقول هذا السيفُ الصَّلْتُ: «كنَّا إذا احمرَّ البأسُ، ولقِي القومُ القومَ: اتَّقَينا برسولِ الله ﷺ»[1].

أتخيَّلتَ البأسَ كيف يحمرُّ؟

وما هو الذي يجعله أحمرَ اللون؟

إنها الدماءُ التي تتطاير من الأعناق، والأشلاء التي تتبعثر في الأجواء..

عند تلك اللحظاتِ الحاسمة، تغدو شجاعةُ عليٍّ بن أبي طالب، وطلحةَ، والزُّبَير، وحمزة، وأبي دُجَانةَ: شيئًا متواضِعًا

---

(١) رواه أحمد، وصححه شاكر.

عند شجاعة النبي ﷺ..

يقول: اتَّقَينا برسولِ الله ﷺ؛ أي: جعلناه بيننا وبين الموتِ.. بيننا وبين صليلِ السيوف!

لقد كان عليه الصلاة والسلام الشجاعةَ في وقتٍ كانت الشجاعةُ صنمًا يكاد يُعبَد من دون الله؛ فنكَّسَ رأسَ الشجاعة لله، وجعلها راهبًا متبتِّلًا في محراب التواضعِ للخالق العظيم.

الآنَ حَمِــيَ الوَطِيسُ

ولا تتجلَّى الشجاعةُ إلا في مواقفِ الخوف العظمى، وأشَدُّها بأسًا لـمَّا تشتجرُ الرماح، وتَنهَلُ السيوفُ من الدم، عندها تظهر معادنُ القلوب، وأصناف البَسالة، ولا يصمُدُ في مثلِ هذه المواطن إلا مَن ختمته الشجاعةُ بخاتَمِها ذي النقشِ الدمويِّ الـمَهُول!

في غزوةِ حُنَين التي ذكرها اللهُ في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ﴾، كان عددُ جيشِ النبي ﷺ اثنَيْ عشرَ ألفًا.. وهو عددٌ لم يجتمع للجيش الإسلامي قبل ذلك، مما حدا ببعضِ

المسلمين أن يقولوا: لن نُهزَمَ اليوم من قلَّة![1].

وما إن التحمتِ الصفوف، حتى ظهَرتْ سيوفُ هوازنَ، ورماحُ ثقيفٍ بالموت الزُّؤَام؛ فطاشت الصفوفُ، وغصَّتِ الأوديةُ بالهاربين!

حتى شجعانُ الصحابةِ، وأولو الحماسةِ منهم والحفظية، انشمَروا وولَّوْا كما وصَفَهم اللهُ تعالى: ﴿مُّدْبِرِينَ﴾، ولله- في تقدير ذلك الهلَعِ المفاجئ على قلوبٍ كالحديد بأسًا- حكمةٌ بالغة!

فأين كان النبيُّ ﷺ في هذا السياق المخيف؟

يقول أصحابُ السِّيَر: كان يصرُخُ وهو في حومةِ الموت ووسَط بُحَيحة المعركة: هلمُّوا إليَّ أيها الناسُ، أنا رسول الله، أنا محمَّد بن عبد الله!

لم يعطِ الموتَ ظَهرَهُ عليه الصلاة والسلام، بل أقبل إليه بصدره الممتلئ ثقةً بما عند الله، وماذا يعني الموتُ عند رجُلٍ إحدى أمانيه الموت؟!

«والذي نفسي بيده، وَدِدتُ أني أقاتِلُ في سبيل الله فأُقتَل،

---

(١) قصة غزوة حنين بتفاصيلها في مسلم، وغيره.

ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل»[1].

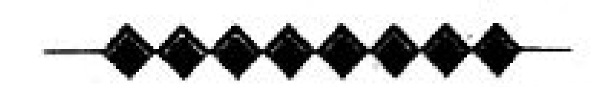
فصرخ العبَّاسُ رضي الله عنه: «أين أصحابُ الشجرة؟ أين الأنصار؟ أين بنو الحارث بن الخزرج ...»، فانتفضت الحماسةُ في قلوبهم من جديد، وعادوا إلى قلبِ المعركة والجنَّةُ تتراءى لهم، يقول العباسُ: «والله، لكأنَّ عَطْفَتَهم لما سمعوا صوتي عَطْفَةُ البقرِ على أولادها»، وأخذوا يهتفون: يا لبَيْك.. يا لبَيْك! فلا ثقيف ولا هوازن ولا الموت يستطيعُ أن يتغلَّبَ على الأشياء التي يشعُرُ بها أصحابُ محمَّد بجوار محمَّد.

فلما رأى النبي ﷺ المعركةَ احتدمت، والنَّقْعَ يعيدُ تشكيلَ صورة الموقف، قال: «الآنَ حَمِيَ الوَطِيسُ»، وابتدأ بقتالٍ ليس كالقتال، وباستبسال ليس كالاستبسال، وبضَرْبٍ يَفلِقُ الهامَ، وأخذت تنداح أرتالُ أصحاب بَيْعةِ الرضوان لتنهيَ أسطورة الشرك، وسقطت أكذوبةُ الجيش الذي لا يُقهَر.. وهرب الأنذالُ إلى نخلةَ، والطائف، وأوطاس، فتتبَّعهم النبيُّ بسراياه، وأجهز على تلك الوجوه التي عليها غَبَرة، تَرهَقها قَتَرة!

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

إنه محمّدٌ، إنه الرجُلُ الأشجع؛ فلا تتحدَّثْ عن الشجاعة وأنت لا تنوي أن تذكُرَه.. ولا تَخُضْ في البسالة وفي نيَّتِك أن تُغفِلَ مغازيه: بدر وأحد والخندق وفتح مكة وحنين...





الجزء المقدس

ما يُسهِرُكَ يا رسول الله؟

صحابي جليل

الجــزء المقــدّس

عندما تقرَأ عن شجاع ما، أرهب أعداءه، وأسكن القلق في أحلام خصومه، وكيف أنَّ طَرَقات الخوف لا تزور قلبه، وأنَّ خَفَقات الذعر ليست ضِمن قاموسه، عند ذلك يصعُب عليك أن تتمثَّله رحيمًا، يعتصر فؤاده ألمًا لموت طفل، وتدمَع عينه لاحتراق أمل، وتذهب نفسه حَسَرات على ألدِّ خصومه.

ولكنَّك بحاجة لقراءة سيرة النبي محمَّد ﷺ حتى تلتقي مع هذا الشخص الأوحد الذي جمع أرفع درجات الشجاعة، وأنبل معاني الرحمة في قلبه الشاسع الممتد.

لقد حصر القرآن الكريم، وقصر سبب إرساله ﷺ في الرحمة، وكأنَّه لم يُخلَق من تراب، وإنَّما خُلِق من رحمة، وفي رحمة، وإلى رحمة، يقول الحق عنه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾! ، ليس رحمة لزوجه وأبنائه وجيرانه، ليس رحمة لصحابته، هو رحمة للعالمين! والعالَمون جمع عالَم، وكل ما سوى الله عالَم.

❀ رُدُوا لهـا ولدهـا

يُحدِّثُنا عبد الله بن مسعود ﷺ أنَّهم كانوا مع النبي ﷺ في أحد أسفاره، وأنه ﷺ ذهب في بعض حاجته، فلقي الصحابة (حُمَّرة)[1].. ومعها فرخان، يقول: فأخذنا فرخَيْها، فجاءت الحُمَّرة، فجَعَلَت تَضطَرِبُ قلقًا وخوفًا على صغارها، فانصرف الصحابة في تلك الدقائق إلى شيء من اللهو البريء، أرادوا تأمُّل الفرخَيْن الجميلَيْن، والأُنس بإمساكهما، وسماع صفيرهما، ولم يكن حال الأم المسكينة ضمن اهتمامهم؛ ولكنَّ نبيَّ الرحمة أقبل، أقبل بقلبه الذي يتحسَّس أدقَّ تفاصيل الحزن في كل شيء من حوله، وكأنَّه بُعِث فيما بُعِث له؛ ليمسَح الدموع ويُسكِّن الآهات ﷺ فإذا بمنظر تلك الأم المفؤودة على صغارها يتصدَّر المشهَد، بل يجعله لا يَعبأ بأي مَرَح جميل، أو لهو بريء! القضيَّة الآن تتعلَّق بقلب يحترق، ولا بدَّ من سرعة التدخل، فيقول النبيُّ ﷺ بكل صرامة: «مَن فَجَع هذه بولَدِها؟ رُدُّوا ولدَها إليها».

فيُسارع الصحابة الكرام إلى تنفيذ أمر النبيِّ ﷺ، فتَعود

---

(١) نوع من أنواع الطيور.

المناءة إلى حياة تلك الحُمَّرة، فتهدَأ نفس النبي الأرحم عليه الصلاة والسلام"[1].

اعلَـمْ أبا مسـعود

يمشي النبي ﷺ في سِكَك المدينة، فإذا بصوت ضربة سوط تتسلَّل إلى أذنه!

إنَّه الصحابي الجليل أبو مسعود، يضرِب عبدًا له، فتُصيب تلك الضَرَبات رُوح النبي الرحيم ﷺ أكثرَ من إصابتها لظهر ذلك المملوك المظلوم.. فيقول نبيُّ الرحمة، بقلب يتفطَّر:

«اعلَمْ أبا مسعود..».

فلم يتبيَّن أبو مسعود الصوت من شدَّة غضبه، فيقترب النبي ﷺ ويُكرِّر: اعلَمْ أبا مسعود..

فينتفِض أبو مسعود للصوت، فيلتفِت ويدُه ما زالت مُلطَّخة بألم ضربة الظلم، فإذا بالنبي وراءه يقول:

---

(١) رواه أبو داود.

«اعلَمْ أبا مسعودٍ، للهُ أقدَرُ عليكَ منكَ عليه»!

فيسقُط السوط من كفِّ أبي مسعود، ويذوب الظلم في نفسه، وتتحنَّط الكلمات..

فيقول أبو مسعود لمملوكه: «اذهَبْ فأنتَ حرٌّ لوجه الله».

هكذا يُطفئ أبو مسعود غضب النبي ﷺ أعتَق العبد لوجه الله.

فأتى التوقيع النبوي على المشهَد: «أمَا لو لم تَفعَلْ، لَلَفَحَتْكَ النارُ»[1].

لو لم تُعتقْه، وتَهبْ له الحريَّة التي تحولُ بينه وبين أن يُضرَب ظلمًا، لتحوَّلت تلك السياط التي لفحْتَه بها، إلى نيران تَلفَحُكَ في الآخرة.

لم يأت النبي ﷺ ليُعالج أمراض وخُرافات الجاهليَّة، ثم يدع تلك الأوهام والخُرافات تسكُن قلوب أصحابه.. وتجعل نظرتهم للحياة تتَّسِم بالتسلُّط والتجهُّم، بل كان حريصًا على

(١) رواه مسلم.

أن يُصقل إنسانيَّة مَن حوله، ويُعيد تلك الأجزاء المقدَّسة التي سقطت منهم أيام جاهليَّتهم.. يُعيدها ليَكتمل بهاؤهم، فالإنسان بلا رحمة، شجرة بلا ظل، ولا ثمر، ولا أوراق.

أنـين العبَّاس

في طريق العودة من غزوة بدر، وقد رُبِط الأسرى بالقيد، وشُدِّدَ عليهم الوَثاق! فتوقَّف الجيش المظفَّر بقيادة الزعيم الأعظم حتى يناموا.

لاحظ الصحابة الكرام أن نبيَّهم لم يَنم، مع أنَّها ليلة مليئة بالسعادة، ليلة كان صُبْحها عزًّا للإسلام، فما الذي أسهر النبي ﷺ؟ تجرَّؤوا فسألوه، ما يُسهِرُكَ يا نبي الله؟ فجاءت الصدمة: "أنينُ العبَّاسِ".

ما حجم الإنسانية في ذلك القلب الذي أرَّقه أنين أسير في القيد؟ فذهب الصحابة وأرْخَوْا من قيد العبَّاس، لينام أرحم الناس.

إنَّها النفس التي لا تَنسى وهي في خضمِّ القوَّة نسائم الرحمة النبيلة، وتَقدِر على أن تتجهَّم للكفر، وتبتسم في نفس اللحظة

للإيمان، ولدَيْها إمكانيَّة أن تصرُخ في وجه أبي جهل، ثم لا تستطيع النوم لأجل أنين العبَّاس.

غابة عصافير

في كل معركة بين جيشَيْن تحترق حديقة أزهار، وروضة أطفال، وغابة عصافير.. إلا إذا كان المقاتل هو الرجل النبيل!

حتى المعارك يدخلها بنفسيَّة الشهم الذي لا يسمح لقطرة دم بريئة أن تُثعَب على سَجَّادة معاركه الفاخرة!

«لا تَقْتُلوا شَيخًا فانيًا، ولا طفلًا، ولا امرأةً..»[1].

لا تسمحوا للرغبة الجامحة في الانتصار أن تخبِّئ نَظَرات طفل بريء، لا ذنب له فيما يجري.

لا تسمحوا لأدخِنة المعركة أن تَعبَث بتفاصيل وجه امرأة، فتَعُدُّونها ضمنَ الرجال، وتُنهوا حياتها بضربة لا تَليق بضعف أُنثى!

---

(١) رواه أبو داوود.

لا تجعلوا الحرب تحرق فيما تحرِق شعوركم بضعف ذلك المُسنّ المتوكّئ على عُكّازه، والذي لا قدرة لدَيْه على حمل سيف، أو رفع رمح، أو ركوب خيل.. وباسم دين الرحمة تقتلونه بعنف!

اذهبي

انهزمت إحدى النساء في معركتها مع الشيطان، فاقترفت فاحشة الزنا، فأقبلت إلى نبيِّ الرحمة، ونيران الذنب تلسَع رُوحها، وأنّات الضمير تكاد تستحيل صراخًا فظيعًا:

لقد زنَيْتُ، فطَهِّرْني يا رسول الله..

ونبيُّ الرحمة يعلَم كيف سيكون التطهير، إنَّه رَجمٌ بالحجارة حتى الموت، ولكنَّه لا يُريد أن تثبُت التُّهمة، يُريد من تلك المرأة أن تَستُرَ نفسها، وتتوب فيما بينها وبين ربِّها، فيُشيحُ عنها، وكأنَّه ما سمِع شيئًا.

فتأتيه من الجهة الأخرى، وهي عازمة على إنهاء صوت العذاب الذي في داخلها: يا رسول الله، لقد زَنَيْتُ فطَهِّرْني.

فيَتصنَّع النبي ﷺ النظر إلى مكان بعيد، وكأنَّه يُتيح لتلك

المرأة المجال أن تهرُب، أن تستفيق، أو يعود لها صوابها،
فالتطهير يعني الموت!

فتكرِّر كلامها: يا رسول الله، لقد زَنَيْتُ، وأنا حامل من
الزنا، فطَهِّرْني.

فيُقبل عليها النبي ﷺ فتُخبره بجُرْمِها، فيجعل لها مُهلة،
لعلَّها تَستُرُ نفسها، وتُخفي جَريرتها، فيقول: اذهبي حتى
تَضَعي ما في بطنك.

لقد ظنَّ الرحيم ﷺ أن تسعة أشهر كفيلة بأن تُطفئ في تلك
المرأة حُرقتها، وتُخفف من لَوْعتها؛ فتَدفن وجهها في الأوجه،
وتتوب فيما بينها وبين ربِّها.

ولكنَّها تعود بعد تلك المدَّة المضروبة! تعود وهي تحمل
وليدها.

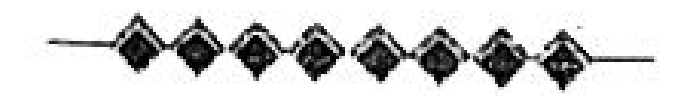
فيضرب لها مدَّة أخرى، ويُطيلها هذه المرَّة أكثرَ، فيقول:
اذهبي حتى تَفْطميه.

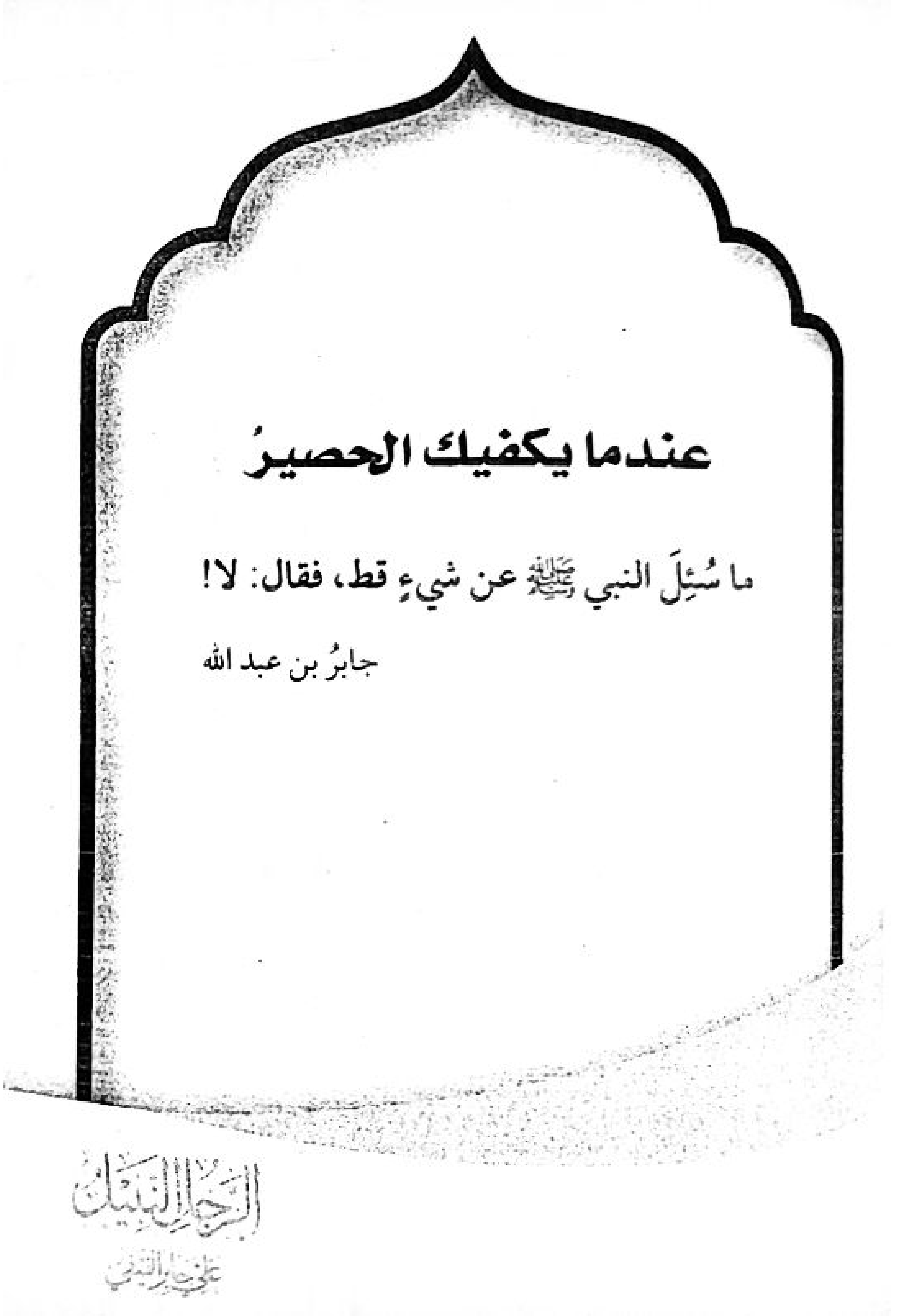
لقد أجَّلها سنتَيْن، لقد أرادت رحمته لتلك الأم المسكينة
أن تعيش بهناء مع ذلك الطفل الصغير، أرادت أن تنسى

تلك المرأة ذنبها (العظيم)، وتبدأ حياتها في ظلال رحمة الله (العُظمى)، ولكن شعور تلك المرأة بالذنب كان أقوى من تلك السنوات، وأشدَّ من شعورها بأمومتها، فأتت بعد سنتَيْن وقد فطمت وليدها، فأقام النبي ﷺ عليها حدَّ الله.

الأكثر وضوحًا من تأنيب ضميرها الحي، محاولة النبي الرحيم ﷺ أن يَسترُها برحمته، وأن يُشيح عنها بشعوره الدافئ تجاه ذلك القلب الذي مزَّقَته المعصية.

والآن، كيف يوصَف دِينٌ هذا نبيُّه بأنَّه دِينُ الوحشيَّة؟! وكيف يوسَم نبيٌّ هذا قلبُه، وهذه رحمتُه بأنَّه نبيٌّ أتى بثقافة القتل، والإبادة والدمويَّة؟ إنَّه الكذِب الصُّراح، والظلم الذي تفوَّق على كل ظلم.





عندما يكفيك الحصيرُ

ما سُئِلَ النبي ﷺ عن شيءٍ قط، فقال: لا!

جابرُ بن عبد الله

عندما يكفيك الحصيرُ

«يا دُنْيا يا دنيَّة، غُرِّي غيري؛ زادُكِ حقير، وعُمُركِ قصير..»!

هذا ما قاله عليٌّ بن أبي طالب ﷺ، أحدُ تلاميذِ النبي ﷺ في ذمِّ الدنيا، واحتقارِها، وعدم الركون إليها.

هذا التلميذُ؛ فكيف بالأستاذ؟!

لقد كان الدرسُ الأولُ الذي أتقن النبيُّ ﷺ تدريسَهُ لتلاميذه رضوان الله عليهم هو أن يعُدُّوا الدنيا ممرًّا لا مقرًّا، جسرًا للعبور، لا حصَّالةً لجمعِ الحُطام، فلا يكترثوا كثيرًا، ولا حتى قليلًا، بشظَفِ العيش، وصعوبةِ الحياة، وسوءِ أحوال الطقس، وضَعْفِ الناتج المحلي، وليشتقُّوا مِن كلمة (الدنيا) شعورًا مناسبًا لها، يجعلها في أنفسِهم تحتلُّ مكانةً دنيَّةً منخفضة، لا تستحقُّ مع هذه المكانة أن تكونَ حديثَ الساعة، ولا مثار الرأي العام.

فكانت النتيجةُ: أبا بكرٍ الذي يُشبِهُ الآخرةَ أكثرَ مِن شبَهِهِ بالدنيا..

وعمرَ الذي يهتف: اخشَوْشِنوا؛ فإن النِّعَمَ لا تدوم!

وعثمانَ شهيد الدار: الذي يغادر الدنيا وبيدِهِ المصحف..

وأبا عُبَيدة: الذي يرى بدايةَ الطاعون في يدِهِ، فيدعو اللهَ أن يبارك فيها..

وأبا ذرٍّ: الذي يهرُبُ من الدنيا؛ ليعيشَ وحيدًا، ويُبعَثَ وحيدًا..

وبلالًا: الذي يزُورُهُ الموتُ، فيهتف بشوق: غدًا نَلقَى الأحبَّة، محمَّدًا وحِزْبَه..

وعبدَ الله بن روَاحة: الذي ما إن يرى أحدَ أصدقائه حتى ينسى الدنيا، ويقول له: تعالَ بنا نؤمِنْ ساعة..

وتـركَهـــــا..

ينام النبيُّ ﷺ ذاتَ يوم على حصيرٍ يابسِ الأطراف، مهترئ النَّسجِ، فيستيقظ، فيرى الصحابةُ الكرام أثَرَ ذلك الحصير في جَنْبِ النبي ﷺ، يرَوْنَ كيف نقَشَ الحصيرُ تفاصيلَهُ الناتئةَ على جسَدِ الرجُلِ النبيل، فيؤلِمُهم ذلك المنظر، تؤلمهم الدنيا التي لم يأخذ منها النبيُّ ﷺ فراشًا وطيئًا ليِّنًا! وفي أنفسهم صراخٌ

يقول: ما قيمةُ دُنْيا لم ينَلْ فيها أعظمُ إنسانٍ سريرًا ينام عليه بهناءٍ؟!

يقولون له بلهجة المحبِّ: يا رسول الله، لو اتخَذْنا لك وِطاءً؟

فيقول النبيُّ ﷺ بصوتٍ يقتلع جذورَ الدنيا، ويَسحَقُ أجزاءها العلويَّةَ: «ما لي وللدنيا؟»، وكأنَّ الصدَى يكرِّرُ تلك الكلمة الجبَّارة:

ما لي وللدُّنيا.. ما لي وللدنيا.. ما لي وللدنيا؟!

فتنطفئ الدنيا فجأةً..

ثم يكمل: «ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظَلَّ تحت شجرةٍ، ثم راح وترَكَها»[1].

أخذت تلك الكلمةُ: «ما لي وللدنيا» تنداح في الأجواءِ، وتتقاذَفُها الأصداء، وتتوغَّلُ في تلك النفوس التي كانت تحاولُ استيعابَ مقدار العظَمة التي تنطوي عليها تلك النفسُ الزكيَّةُ.

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

الدنيا ليست حديقةً غنَّاءَ، ولا شجرةً في هذه الحديقة، الدنيا ظلُّ شجرة! إنها أقَلُّ مِن أن تكون شجرةً! إنها الظلُّ الزائل، إنها البقيةُ الباردة التي في الكأس، إنها الأشياءُ التي تختفي بمجرَّدِ أن نحدِّقَ فيها.

ثم استمِعْ إلى «راحَ وترَكَها»، ومُدَّ قليلًا في «ترَكَها»، اجعَلْ نهايتَها خُفُوتًا يلائم خفوتَ الدنيا، وتلاشِيَها في نفسِ الرجُلِ النبيل عليه الصلاة والسلام.

قهقهـــةٌ

يَعرِضُ المشركون على النبيِّ ﷺ الدنيا كبديلٍ يرونه مناسبًا للتخلِّي عن الدِّين!

هم لا يَعلَمون مقدارَ القهقهة التي تفجَّرتْ في ذِهن المروءة تلك اللحظات!

كان عمُّهُ أبو طالب حاضرًا ذلك العرضَ السخيف!

وأخذ أبو طالب ينتظر أن يهدم النبيُّ ﷺ هذا العرض، وأن يمرِّغَ وجه أبي جهل في التراب، فجاء الردُّ الذي يصعب على التاريخ أن ينساه: واللهِ، لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمر

في شِمالي على أن أترك هذا الأمر، ما تركتُهُ، أو أهلِكَ دونه»[1].

توقفتِ العروض، وطاشت أوراق الباطل..

وكأنَّ أبا طالب بعدما سمع هذه القذيفةَ التفت إلى أبي جهل وقال بنظَراته: إن الذي كبَّره في عيني: صِغَرُ الدُّنيا في عينه..

هذه الدنيا التي أجلَبَ لأجلها أبو جهل بخيلِهِ ورَجِلِهِ وكذبه الرخيص لا تصلُحُ أن تكون كرةً تُركَل بالأقدام في مذهبِ الرجل النبيل.

تمرَّغَ أبو جهلٍ بأكمله في التراب، ثم انصرف مكلَّلًا بالخزي، وبقي الرجُلُ النبيل هازئًا بالكفر، كما ينبغي للنُّبُلِ أن يفعل!

جَنــاحُ بعوضـةٍ

يقف النبيُّ ﷺ ذاتَ يوم بإزاء الدنيا، والصحابةُ خلفه ينتظرون تعليقه، فيَبهَتُهم التعليقُ، ويَذهَلون به: «الدنيا ملعونة»..

---

(١) سندها ضعيف، والعلماء لا يشددون في روايات السير والتاريخ كثيرًا.

هكذا يصدم النبيُّ ﷺ تلك الأبراج المشيَّدة، والقلاعَ الحصينة، والمناجم المكتظة بالذهب.. «الدنيا ملعونةٌ .. ملعونٌ ما فيها، إلا ذِكْرُ الله، وما والاه، وعالمٌ، أو متعلِّمٌ»[1].

الدنيا في عين النبيِّ ﷺ ليست «لا شيء»، بل إن اللا شيء أكبرُ قدرًا منها!

إنها باختصارٍ: «ملعونة».

الدنيا إن لم تكُنْ لله، فهي مطرودةٌ من رحمة الله، ومن بركة الله، ومن توفيق الله..

ويقولُ ذات يوم ليُحرِقَ بقايا الدنيا في نفوسِ تلاميذه، ليحرق بقاياها في نفسي ونفسك: «لو كانت الدنيا تَعدِلُ عند الله جَناحَ بعوضةٍ، ما سقَى منها كافرًا شربةَ ماء»[2].

إن جَناح البعوضة الحقيرَ له من القيمة ما ليس للدنيا بكل تفاصيلها!

والسؤال: بأيِّ جزءٍ من أجزاء ذلك الجَناح الحقير تعلَّقتْ نفسي ونفسُك؟!

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن.

(٢) رواه الترمذي، وقال: صحيح غريب.

يقول جابر ﷺ: «ما سئل النبيُّ ﷺ عن شيء قط، فقال: لا»[1].

هل يقول: «لا» مَن ربَّى صحابته على أن الدنيا أقلُّ مِن كلمة لا وكلمة نعم؟

أهدَتْهُ امرأةٌ بُرْدةً ليَلبَسها، فلَبِسَها النبي ﷺ، وكان أحوَجَ ما يكون إليها، فرآها رجُلٌ، فقال: يا رسول الله، ما أحسَنَ هذه! فاكسُنِيها.. فقال: «نعم».. فخلَعَها، وأعطاها إياه[2].

ألهذا الرجُلِ تقول قريش: إن كنتَ تريد مُلْكًا ملَّكناك؟

وما هو الملكُ في قاموس محمَّد عليه الصلاة والسلام؟

الدنيا بأملاكها يَخلَعُها في لحظة، لأجل عينِ أحدِ رفاقه..

الدنيا كلُّها لا تساوي عنده رغبةً عابرة في نفسِ رجُلٍ عابر..

إلا أعطـــاه

يقول أنسٌ خادمُ الرجُلِ النبيل، وقد كان من أعرَفِ الناس به: «كان النبي ﷺ لا يدَّخِرُ شيئًا لغد»[3].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) الخبر في البخاري.
(٣) رواه الترمذي، وابن حبان في صحيحه.

حدِّثني الآن عن مدَّخراتنا؟

حدِّثني عن أرصدتِنا البنكية، حدثني عن الدنيا التي نتنقَّلُ بها من مكانٍ إلى مكان!

ويقول أنس: «ما سُئِلَ رسولُ الله ﷺ شيئًا إلا أعطاه»[1].

وضَعْ ما شئتَ من الخطوط تحت: (إلا أعطاه)..

يقول: «فجاء رجُلٌ، فأعطاه غنمًا بين جبَلينِ! فرجع إلى قومه فقال: يا قومِ، أسلِموا؛ فإن محمَّدًا يعطي عطاءَ مَن لا يخشى الفقرَ!».

الدنيا أقلُّ من أن يدفعها بيده، إنه حتى لا يريد أن يَلمِسَها، لا يريد أن يتلبَّسَ بشيء من متاعها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «لو أنَّ لي مثلَ أُحُدٍ ذهبًا، ما يسُرُّني أن تأتيَ عليَّ ثلاثُ ليالٍ وعندي منه شيءٌ»[2].

هنا تتكسَّرُ الدنيا موجةً موجةً على شاطئ رجُلٍ يصعبُ على التاريخ فهمُ أغوارِ نفسه العظيمة.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

الدنيا كلُّها لا تصلح أن تكونَ جاريةً مملوكة في بيت محمَّد ﷺ؛ إنه يعرفُ قدرها جيدًا، فجعل إعادتها إلى حجمها الطبيعي مشروعَ حياته، وأوْلى أولوياتِه.

❀ عابرُ سبيلٍ

ابنُ عمرَ من الصحابة الذي امتلؤوا بعِطْرِ الرجُلِ النبيل، حتى إنه لم يكتفِ بالاقتداء بسُنَّته التعبُّدية، بل بات يقتدي بعاديَّاتِهِ اليومية عليه الصلاة السلام، ولا عاديَّاتِ في حياة هذا العظيم!

حتى الشجرة التي كان يخفض النبيُّ ﷺ رأسه إذا ما مرَّ من تحت أغصانها، يخفض ابنُ عمرَ رأسه إن مرَّ من موقعها بعد أن قُلِعتْ بسنوات؛ لأن حبيبَهُ خفض رأسه هنا ذات يوم!

راحتِ الشجرةُ، واختفت الأغصان، ولم يختفِ طيفُ الرجل النبيل من ذهنِ ابن عمر.

كان هذا الصحابيُّ الجليل مثَلًا للزهد، وللبُعْدِ عن الدنيا، ليس في بيته من الدنيا شيء، ولا في قلبه منها شيء، ولا في كلماته منها شيء.

أتدري ما السببُ؟

اسمَعِ السبب:

يقولُ ابن عمر: أمسك النبيُّ ﷺ ذات يوم بمنكبي، وقال: «كُنْ في الدنيا كأنَّك غريبٌ، أو عابرُ سبيلٍ»[1].

فتحوَّلَ ابن عمرَ إلى غريبٍ في هذه الدنيا، وإلى عابر سبيلٍ في أزقَّة هذه الحياة، تأتيه الخلافةُ عند باب بيته، فيفتحُ البابَ ويركُلُها، ثم يُغلِقُ البابَ بهدوء!

لقد نشر الحبيبُ عليه الصلاة والسلام مبدأ الزهد، والترفُّعِ عن الدنيا في قلوب أصحابه؛ لأنه كان يعلم جيدًا أن حبَّ الدنيا هو البابُ الأخطر الذي يدخل مِن خلاله الوهَنُ، وضياعُ الدِّين، ونسيانُ المبادئ؛ لذلك ففي كل يوم مِن سيرته له كلمةٌ، وفي كل حادثة له موقف، وفي كل مِنبَرٍ له تذكير يقول: «ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكنني أخشى أن تُبسَطَ عليكم الدنيا، كما بُسِطتْ على مَن كان مِن قبلكم؛ فتَنافَسُوها كما تَنافَسُوها، وتُهلِككم كما أهلكَتْهم»[2].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

انثـــــروه

يؤتى النبيُّ عليه الصلاة والسلام بمالٍ من البحرين، يقول الراوي: «وكان أكثَرَ مالٍ أُتي به رسولُ الله»، هنا محكُّ الكلمات، واختبار المقولات التي قالها لأصحابه، وهنا التطبيقُ العمليُّ لدرس: «ما لي وللدنيا»..

فقال النبيُّ ﷺ لأصحابه لما أخبروه عن ذلك المالِ الوفير: «انثُروه في المسجد»!

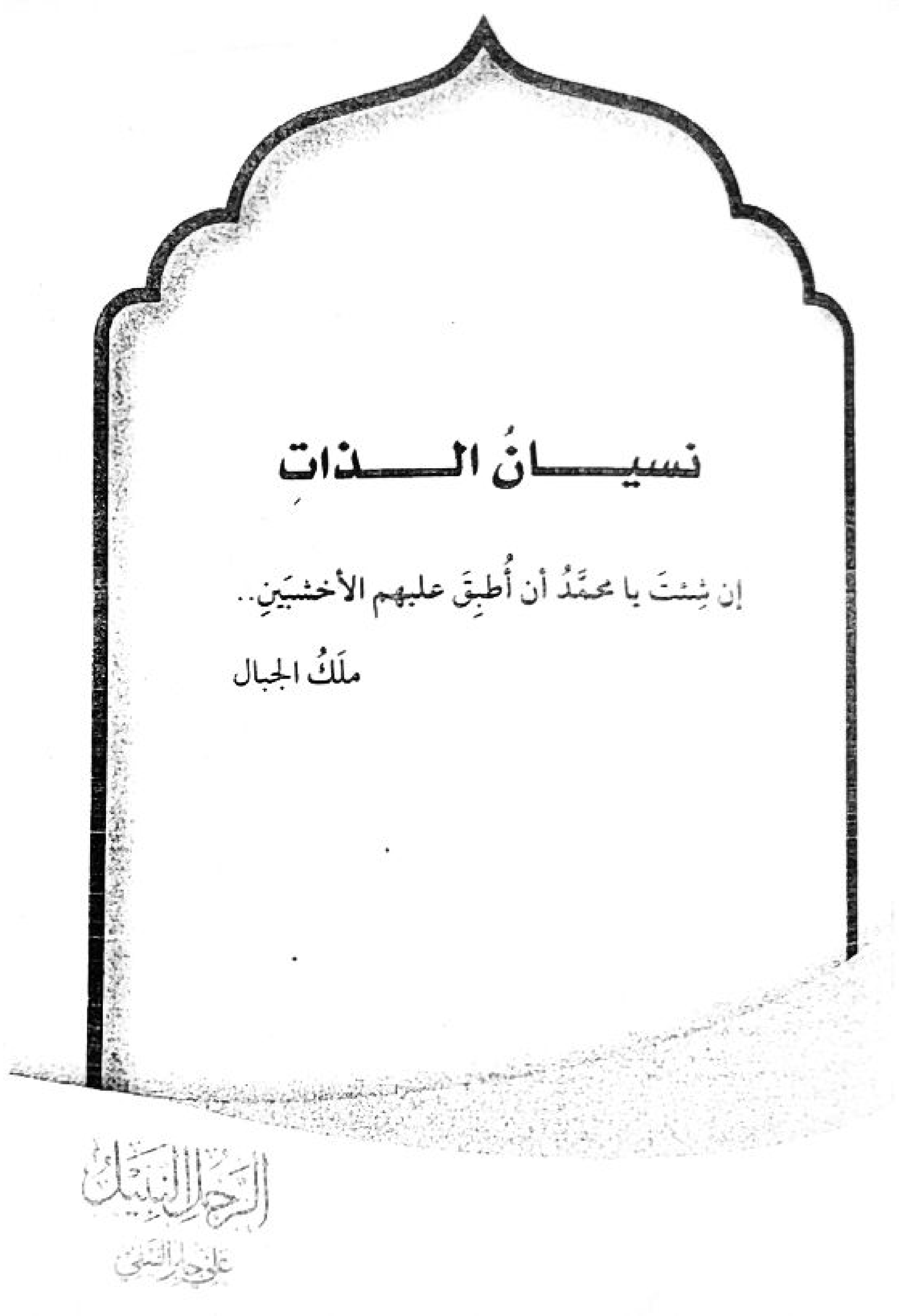
لم يُرسِلْهُ إلى مخزنٍ خاص محكَم الإغلاق، ولم يعمل جردًا دقيقًا لموجوداتِ ذلك المال، ولم يوقِفِ الحراسَ حوله!

«انثُروه في المسجد»؛ فالدنيا أقلُّ من أن نُطِيلَ الكلام حولها.

فلما حانت الصلاةُ، خرج النبي ﷺ من حجرته للصلاة؛ يقول الراوي: «ولم يلتفِتْ إليه»!

ألاحَظتَ العظمةَ؟ أرمَقتَ الشموخ؟ هل أُصِبتَ باندهاش؟

لا عجَبَ؛ فإنك تقرأ سيرةَ محمَّد ﷺ، الذي يعتقد أن الدنيا أقلُّ مِن أن يلتفتَ إليها.



نسيانُ الذاتِ

إن شِئتَ يا محمّدُ أن أُطبِقَ عليهم الأخشبَينِ..

ملَكُ الجبال

نسيانُ الذاتِ

الحِلْمُ والتسامحُ هو أن تستطيعَ أن تنتقم، فتفضِّلَ أن تبتسم! وأن تَقدِرَ على العقوبة، فتجعلَ مكانها مكافأة، وأن تتمكَّنَ مِن هدم جدارٍ أوشك أن ينقَضَّ عليك، فتشيِّدَه.

ولكن ليس من السهل أن تسامحَ وتحلُمَ عمَّن ظلمك، وتفنَّنَ في إيذائك، وسَهِرَ الليالي حتى يسُكَّ مصطلحاتٍ يَكيد بها نفسك، ويقضي على شعور الفرح في داخلك.

ليس من السهل أن تفعل ذلك؛ فالنفس البشرية رُكِّبَتْ على صعوبةِ مثلِ هذا الإجراء؛ فالقضية ليست كلمةً تقولها، وإنما إحساس يصبُغُ رُوحَك، ونظرتك، ومشاعرك، ويجعلك ترى ذلك الخَصْمَ الألَدَّ متساويًا مع الولي الحميم؛ في تعامِلك معه، والإحسان إليه.

هذا الأمر الصعبُ هو من الممارسات السهلة لدى النبي ﷺ، التي انعجَنتْ مع نفسِه، وانمزَجتْ مع أيامه المليئة بالإرهاق! فبات لا يستصعبُها، ولا يشعر بأنه فعل أمرًا ذا بالٍ

عندما يعفو عمَّن ظلمه، أو يتجاوز عمَّن بغَى عليه، أو يصفح عن رُوحٍ تلبَّسها الشر، وبيَّتتْ له المكايد.

العفوُ عن فِرعونَ

لو حاولنا أن نتخيَّلَ الشيطان وقد غدا رجُلًا يسير في أزقَّةِ مكَّةَ رائحًا وغاديًا، لصعُبَ علينا أن نتخيَّلَهُ في غير هيئة أبي جهلٍ؛ ذلك الرجُلِ الذي تحوَّلَ في أذهاننا إلى أيقونة للشر المحض، والسخريَّة اللاذعة، والمؤامرات السوداء، حتى لقد سماه النبيُّ ﷺ فِرْعونَ هذه الأمَّة؛ دَلالةً على تأصُّل النزعة العدوانية في نفسه، وتمحُّضِهِ للشر، والمعاداة للدعوة الإسلامية.

ومع هذا، فإننا نَلمَح نبيَّ التسامح في أيامه بمكَّة يَدفِنُ كل يوم سَوْءات ذلك الطاغية، ويعامله معاملة مستورِ الحال؛ فيدعوه إلى الله والدار الآخرة وكأنه ليس هو العدوَّ الأولَ لله، وليس هو الساخرَ الأكثر جُرْأةً من الدار الآخرة.

ثم في لحظةٍ من لحظات التسامح النادرة في عُمُرِ البشرية، يرفع النبيُّ ﷺ يديه داعيًا الله: «اللهم أعِزَّ الإسلامَ بأحَبِّ

هذين الرجُلَينِ إليك: بأبي جهلٍ، أو بعمرَ بن الخطاب»[1].

كيف استطاع النبيُّ ﷺ أن يَصهَرَ شعور الانتقام من رَجُلٍ لطَّخَ سُمْعته، وآذاه في دعوته، وخطَّط لاغتياله، ويحوِّله إلى حَدَبٍ وحرص ورغبة في أن يلتحق بقطار الدعوة، ويغدوَ أحد الصحابة الكرام؟!

هذا لا يمكن أن تُطِيقَهُ نفسٌ لم تبلُغْ ذِرْوةَ العظمة!

مَن يَمنَعُك منِّي؟

بخطواتٍ أثقلها التعبُ يلجأ النبي ﷺ إلى شجرةٍ ظليلة، يعلِّقُ على غصنٍ منها سيفه، ثم يستلقي تحتها، ويغفو إغفاءةَ الرجُلِ الذي هدَّتْهُ مهمَّات الدعوة، إغفاءةَ رجُلٍ رسالتُهُ الأولى في الحياة إنقاذُ العالم من التوحُّش الذي يدفعهم إليه الكفرُ بالله.

في هذه الأثناء، نظر أعرابيٌّ يُخفِي كفره إلى النبي ﷺ، فإذا بكل التفاصيل تدفعه إلى أن ينفِّذَ خطة أضمرها منذ زمن: القضاء على الشخص الذي لم تحبَّ الدنيا رجُلًا مثله من قبل.. خطتُهُ هي قطعُ اليد التي امتدت إلى البؤساء، وخنقُ الرُّوح

---

(1) رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

التي تتأوه للحزانى، وإنهاء حياة الرجل الذي يُعَدُّ أهمَّ من الحياة ذاتها!

استيقظ النبي ﷺ فجأةً، فرأى الأعرابي شاهرًا سيفه عند رأسه.. لم تتسِعْ عيناه عليه الصلاة والسلام اتساعًا إضافيًا، كما يحدُثُ لأيِ مندهش، لم تَزِدْ وتيرةُ نبضات قلبه، بل كان المندهشُ حقيقةً هو الأعرابيَّ! فسأله: ألستَ خائفًا مني؟ فجاء الجواب كالبُرْجِ الضخم المشيَّد بالثقة بالله: لا..

فأراد الأعرابيُّ من النبي ﷺ أن ينتبهَ إلى السيف الذي في يده.. أراد أن يَلفِتَ نظره إلى أنه أتى لاغتياله، لا ليرتشف معه فنجانًا من القهوة، فقال: مَن يمنعك مني؟ فقال النبي ﷺ بكل هدوء: اللهُ!

ولأن «الله» خرَجتْ وخرج معها إحساسٌ بحجم الكون بمعنى «الله»، فما إن سمعها الأعرابيُّ حتى هوى السيفُ من يده، فقام النبيُ ﷺ وأمسك بالسيف، ثم نظر إلى الأعرابي المذعور، وقال له: مَن يمنعك مني؟ فقال الأعرابيُّ: كُنْ خيرَ آخِذٍ..

فعفا عنه النبيُّ ﷺ.. فذهب الأعرابيُّ إلى قومه فقال لهم: جئتكم من عند خير الناس..[1].

---

(١) رواه أحمد، وأصله في الصحيحين.

إن ما يفعله النبيُّ ﷺ من عظَمة وشموخ لأمرٌ تعجِزُ عن استيعابه الأرواحُ التي قطَنتِ الصحراء!

إن محمَّدًا معضِلة من معضلات الحياة بالنسبة لأولئك الأعراب!

كيف يمكن أن يوجَدَ فردٌ تخلَّصَ من فَرْدانيته، واستطاع أن يَنزِعَ نفسه من نفسه، وأن يتعامل مع أحاسيسه بموضوعية مطلقة؟!

أعرَفتَ الآن لماذا تجلس العظَمةُ دائمًا بالقرب منه؟ ولماذا قرَّرَ الشموخُ أن يكون حاملَ مِظلَّتِهِ عليه الصلاة والسلام؟

المواقف التي تقف فيها الأنفاسُ، ويتحنَّطُ عندها عقربُ الدقائق يتعاملُ النبيُّ ﷺ معها بأناقةٍ بالغة، وبرهافة تُدهِشُ العقول، وكأنه عليه الصلاة والسلام يزاولُ أمرًا اعتياديًا، لا أنه يتعامل مع مجرِمٍ أتى خِصِّيصًى لاغتياله!

ثم بعد هذا الموقفِ المليء بالإثارة، يأتي التوقيعُ النبوي الجليل بالعفو، ويُسقِطُ النبيُّ ﷺ حقَّهُ في قتلِ المخطِّط لاغتياله، وتمضي الحياة بهدوئها، وتعود ظلالُ تلك الشجرة تموَّجُ على صفحة أنبَلِ وجهٍ عرفته البشرية.

روحٌ شاسعةٌ

يحدِّثنا أنسُ بن مالك عن موقفٍ حدَثَ أمام عينيه؛ أن النبيَّ ﷺ كان يمشي وعليه رداءٌ غليظُ الحاشية، يقول أنس: «فأدركه أعرابيٌّ فجبَذَهُ بردائه جَبْذَةً شديدة، فنظَرتُ إلى صفحة عاتق النبي ﷺ وقد أثَّرتْ بها حاشيةُ الرداء من شِدَّة جَبْذته، ثم قال: يا محمَّد، مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفتَ إليه فضَحِكَ، ثم أمر له بعطاء»[1].

اصدِمْ شعورَ الأنَفة في نفسك بمسألة «جبذه»!

أعرابي يَجذِبُ الرجُلَ الذي اختاره اللهُ ليكون رسولَهُ إلى سكان الأرض! يَجذِبُهُ بشِدَّة، فتؤثِّرُ جَذبتُهُ في صفحة عنقِ الرجُلِ النبيل، حتى إن أنسًا رضي الله عنه يرى احمرارًا في عاتقه عليه الصلاة والسلام من أثَرِ تلك الفظاظة!

ثم يقول بلُغَةٍ صحراوية بالغة التحجُّرِ: يا محمَّدُ، أعطِني من مال الله الذي عندك!

إن في كل جُزَيءٍ من هذا الموقف ما يجعل الصبرَ يَنفَد، والتواضعَ يتلاشى، والسماحةَ تختفي، ومع ذلك يلتفت النبيُّ

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

كيف استطاع ذلك؟ وما مقدار العظَمةِ التي اكتظَّتْ بها رُوحُهُ الشاسعة، رُوحه مترامية الأطراف؟

كيف تضحك أيها النبيلُ وصفحةُ عنقك تحتاج إلى أن تمسَّها بيدك المباركة ليخفَّ ألمها؟ أليس لها اعتبار لتَغضَبَ قليلًا من أجلها؟

كان عليه الصلاة والسلام يتحكَّمُ في تصرُّفاتِهِ بطريقة يصعب على الخيال أن يصدِّقَها، ولو لم يَروِها الثقاتُ الأثبات، لشكَكْنا فيها؛ إذ إن قدرةَ الإنسان على أن يغدوَ حليمًا متجاوزًا مهما كبُرتْ فهي محدودةٌ، ومهما اتسعَتْ فإن لها مساحةً افتراضية لا يمكن تجاوزها، ولكنَّ النبيَّ ﷺ -في جميع فصول سيرتِهِ- أثبتَ للدنيا أنه استثناءٌ في كل شيء، وأن الحِلْمَ أحدُ الصفات التي كان فيها استثنائيًّا بدرجة هائلة!

إن شئتَ

كان النبيُّ ﷺ في حِلمِهِ وكأنه بلا غضب، وبلا خاصية التألُّمِ من المواقف الصعبة، فتجده يُتقِنُ مهارةَ غضِّ الطرف عن الإساءة الجارحة، ولديه سرعةٌ عجيبة في نسيان مواقفِ

الخِذلان التي يطعَنُهُ بها رفاقُ الأمس، وأصفياء الزمن الماضي.

عاد عليه الصلاة والسلام مِن رحلة دعوية شاقَّة، سافر فيها إلى الطائف، كانت نتائجها: تكذيبًا، وطردًا، ودماءً تُثعَبُ مِن جسده الطاهر.

عادَ وهمٌّ كالجبال يُحيطُ به من جميع الجهات، فكيف سيَرجِعُ إلى مكَّة؟ وبأي وجهٍ سيلتقي بأبي جهلٍ المعاند، وأبي لهَبِ المتكبِّر، وعُقْبة المستهزئ؟!

فيدعو اللهَ بدعاءٍ لو أذن اللهُ له أن يتحوَّلَ إلى عاصفة، لانتزع مشركي مكَّةَ من بين الجبال، وألقى بهم في وادي النسيان.

ومن بين تهويمات ذلك الكَرْبِ العظيم، ينزِلُ من السماء ملَكُ الجبال بنفسه، ليقول للنبيِّ الذي كذَّبه رفاقُ الأمس، وشيَّعوه بأنواع الشتائم، وجعلوه رمزًا للكذب والدجَلِ؛ يقول له: «إن شِئتَ أن أُطبِقَ عليهم الأخشبَينِ»، والأخشبانِ: جبَلانِ يحيطانِ بمكة.

كأنه يقول: إن شِئتَ أن أُنهِيَ أبا جهلٍ الذي أوقف حياته لصبِّ العذاب على رفاقك، وأقضيَ على عقبة بن أبي مُعَيطٍ

الذي وضع سَلَا الجزور على ظهرك، وأسحَقَ أبا لهب الذي أشاع بين الناس أنك كذَّاب..

إن شِئتَ أن تصل إلى مكةَ فلا تجد هؤلاء العُتَاة الظَّلَمة، فأنا أفعل ذلك الآن، أُطبِق عليهم الجبلينِ لتنتهي أسطورة الإجرام والتكذيب.

في هذه اللحظة التي تتوقف فيها أنفاسُ التاريخ، يقرِّرُ النبي ﷺ أن ينسى دموعَه، وأن يؤجِّل أحزانه، وأن يتنازل عن حقِّ دمائه التي ما زالت تُثعَبُ، ويقول بلغةٍ لا يفهمها التوحُّش الذي توغَّل في أغوار الأرض تلك السنين: «بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ مِن أصلابهم من يعبد اللهَ وحده، ولا يُشرِكُ به شيئًا»[1].

يا لهذه النفس التي تفكِّرُ في لحظة الانتقام اللذيذ بالغد! تفكِّرُ في عدمٍ لم يخلُقْهُ اللهُ بعد!

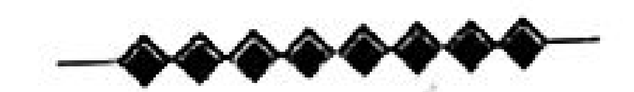
إنه لم يسامح الأحياءَ، بل إن حِلْمَهُ وتسامُحَهُ تجاوز الأحياءَ إلى أناس لم يخلقهم اللهُ بعدُ!

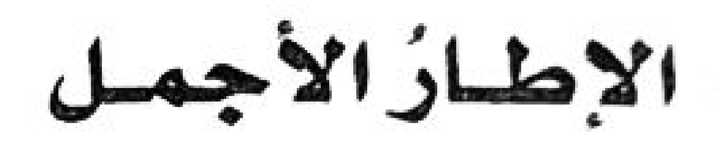
---

(١) الخبر بتمامه في صحيح مسلم.

ثم يكمل طريقه إلى مكةَ، وكلُّ حجَرٍ في الطريق يرمق العظَمةَ وهي تسير، والشموخَ وهو يدفن رغباتِهِ، ويتعالى عليها.

يعود إلى مكَّةَ المكتظة بالحياة، التي لولا اللهُ ثم قلبُ هذا الإنسان العظيم، لباتت بلا حياةٍ، يعود لتصدمه قهقهاتُ أبي جهل، وأكاذيبُ أبي لهب، وسخريَّات عقبة، فينظر إليهم ودويُّ صوتِ ملَكِ الجبال يرنُّ: «إن شِئتَ أن أُطبِقَ عليهم الأخشبَينِ»، فيقرِّرُ عليه الصلاة والسلام أن يستعيضَ عن إطباق الأخشبَينِ بأن يُطبِقَ هو جَفْنيه عن تلك النفوس المريضة، ويسير في دروب الحياة بعظمةٍ تنظر إليها جبالُ مكَّةَ بذهول.





الإطارُ الأجمل

«كنتُ أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْدٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشية»

أنس بن مالك رضي الله عنه

الإطـــارُ الأجمـــل

لن يحتاج محمَّد ﷺ إلى سِوارَيِن كِسوارَيْ كِسرى؛ ليثبت للعالَمَ أنه الرجلُ الأول.

لن يحتاج إلى قصرٍ ذي قِباب كثيرة، ومداخلَ واسعة، وشُرَف مشيَّدة بالرُّخام الصقيل؛ حتى يَفهَمَ الناسُ دعوته، ويعملوا بسنَّته، ويتلوا القرآن الذي أُنزِل عليه.

لن يحتاج إلى فخامةٍ مصطنَعة، وإطارٍ متكلَّف؛ لتبدوَ صورتُه أكثرَ جمالًا؛ ففخامةُ نفسه كافية جدًّا، وشمائله الطيبة أجملُ إطارٍ لرُوحه المكتظة بالجمال والجلال.

إن الأشياء التي تسكن داخل محمَّد ﷺ ذاتُ نصاعة كافية؛ بحيث إنّ أيّ محاولة لإضافة تحسينات قد تَطمِسُ شيئًا من توهُّجها الفريد! فلا أجملَ عند الحديث عن محمَّد مِن الحديث عنه بالهيئة التي كان عليها، دون إضافة لمسات، أو رفعٍ في درجة الإضاءة، عليه من الله أزكى الصلاة، وأتم التسليم.

عن أبي هريرةَ ﵁، قال: جلس جبريلُ إلى النبي ﷺ، فنظر إلى السماء، فإذا ملَكٌ ينزل، فقال جبريل: إن هذا الملَكَ ما نزل

منذ يوم خُلِقَ قبل الساعة، فلما نزل، قال: يا محمَّدُ، أرسَلَني إليك ربُّك، قال: أفملِكًا نبيًّا يجعلك، أو عبدًا رسولًا؟ قال جبريل: تواضَعْ لربك يا محمَّد، قال: «بل عبدًا رسولًا»[1].

فلم ينفكَّ النبيُّ ﷺ عن تأديةِ رسالة ربِّه برُوحِ العبد لله، المتواضعِ لجلاله، الذي انزاحت الدنيا عن قلبه، فبات أهمَّ بيتِ شِعر في قصيدة عظماء التاريخ.

أيـــن محمـدٌ؟

الشيء الذي يَصدِمك في شخصية الرجل النبيل عليه الصلاة والسلام: هو أنه لم يكُنْ يسعى إلى أن يغدوَ مُهابًا، أو أن يتخلَّقَ بما يضادُّ طبيعتَهُ العفوية، التي زادته هيبةً وحبًّا.

فقد كان الرجلُ الغريب يدخل إلى المسجد باحثًا عنه، وهو لا يَعرِفه، فلا يستطيع الوصولَ إليه بهيئة معينة، أو لِبْسٍ انفرد به، فيحتاج إلى النداء: أين محمَّد؟

لقد أسقط عليه الصلاة والسلام جميعَ (البروتوكولات)، التي يظن بعضُ الناس أن المنصبَ يقتضيها، وأنها (رتوشٌ)

(١) رواه الإمام أحمد، وصححه شاكر.

إضافية تحافظ على هيبةِ الكرسيِّ، وجلالةِ المكانة، ولكنَّه عليه الصلاة والسلام قرَّر شَطْبَها من قائمة اهتماماته؛ فليس هناك شيءٌ يحافظ على هيبة الكرسيِّ أقوى من العدل والإنصاف، ولا رتوشَ تُبقِي للمنصب مكانته وأبَّهته كالصدق والتواضع!

لم يكن ثمة اختلافٌ ظاهريٌّ كبير بينه وبين أبي ذرٍّ، أو عُبادة بن الصامت، أو خبَّاب بن الأرَتِّ رضوان الله عليهم.

ولم يكن هناك شيء يَلبَسه ليفرِّق الناظرُ إليه بينه وبين سلمانَ الفارسي، أو بلال بن رباح، أو صُهَيب الرومي!

ومع ذلك، فما إن تلتقي عينَا الناظر إليه بعينيه حتى يأتيه ذلك الإحساسُ الخاص، وذلك الشعور الدفَّاق!

يقول عبد الله بن سلَام ﵁ وقد كان يهوديًا فأسلم فيما بعدُ: «لمَّا قَدِمَ النبيُّ ﷺ المدينة، انجفَلَ الناس قِبَله، فقالوا: قَدِم رسولُ الله، قدم رسول الله، فجئتُ في الناس لأنظر إلى وجهه، فلما رأيتُ وجهه، عرَفت أن وجهه ليس بوجهِ كذَّابٍ!»[1].

هذا يهوديٌّ لم يسبق له أن رأى النبيَّ ﷺ، يزاحم فيمن

(1) رواه الترمذي، وصححه الألباني.

يزاحم؛ لينظرَ إلى وجهِ هذا الذي جاء للتوِّ من مكّةَ، ويزعم أنه نبي، فإذا أولُ ما رآه في وجهه: أماراتُ الصدق، وهالاتُ المؤمنِ الذي لا يمكن له أن يقولَ الكذب!

كيف للصدق أن يتحوَّل من أحرُفٍ تخرج من الفمِ إلى نظراتٍ تنبعث من العين، وإلى هدوءٍ يسكن في القسَمات؟

هذه هي الهيبةُ والمكانة التي يحتاج إليها صاحبُ المنصب!

إنها أشياءُ أغلى من المواكب، والتشريفات، والمراسيم..

بلا موكب

وكان ليِّنَ الجانب مع الضعفاء؛ يقول أنسٌ ﵁: «إن كانت الأمَةُ من إماء أهل المدينة لَتأخذُ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلقُ به حيث شاءت»[1].

بلا موكبٍ، وبلا خدَم، ولا حشَم، تأتيه الأمَة (تقولُ بعض الروايات: إن في عقلها شيئًا!)، فيسير معها حيث شاءت، وهي تَروي له حاجتها، وتحكي له مشكلتها، فلا يطلُبُ منها أن تأتيَ أبا بكرٍ لينظر في حاجتها، أو يُحيلها على عمر لتسجِّلَ

(١) رواه البخاري ومسلم.

موعدها لديه، بل كان هو مَن ينطلقُ معها، وينظر في شأنها بكل عفويَّةٍ عظيمة، وتواضع مهيب.

۞ غليظُ الحاشية

كان عليه الصلاة والسلام أسهلَ ما يكون في لِباسه، لم يكن يبحثُ عمَّا يَلفِت الأنظارَ، بل يبحث عمَّا يُرِيح نفسَه، ويَجمَع قلبه على قضايا الإيمان التي بعثه اللهُ من أجلها.

فعن عائشةَ رضي الله عنها: أن النبيَّ ﷺ صلَّى في خميصة لها أعلامٌ، فنظر إلى أعلامها نظرةً، فلما انصرف قال: «اذهبوا بخميصتي هذه إلى أبي جهمٍ، وأْتُوني بأَنْبِجَانيَّةِ أبي جهمٍ؛ فإنها ألهتني آنفًا عن صلاتي»[1].

والأَنْبِجَانيَّة: كساءٌ غليظ من صوفٍ! يفضِّله النبي ﷺ على الخميصةِ، ذاتِ البهاء والألوان الجميلة؛ لأنها لا تَشغَله بجمالها عن جلال مَن يناجيه؛ فالحياةُ عند محمَّد ﷺ ليست مسرحًا للتجمُّل البحت، وإنما مِضمار للسير إلى الله، وعلى هذا فليَلبَسِ الغليظَ من الثياب، والرَّثَّ من الأسمال، ما دام

---

(١) رواه البخاري تعليقًا.

خفَقانُ قلبه يهدأ مع هذا اللِّباس المتواضع جدًّا.

يقول أنسٌ رضي الله عنه: «كنتُ أمشي مع النبي ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظُ الحاشية ...»[1].

هذا الذي لو أراد لدعا اللهَ فجعل له خيرًا مما يَملِكُ عظماءُ الدنيا؛ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾، ومع ذلك يَلبَسُ بُرْدًا نجرانيًا غليظَ الحاشية![2].

وهذا البُرْدُ النجراني يذكِّرُنا بالجُبَّةِ الشامية التي تحدَّثَ عنها المغيرةُ بن شعبة؛ أنَّ النبي ﷺ كانت عليه جُبَّةٌ شامية، فذهب ليُخرِجَ يده من كُمِّها، فضاقت، فأخرج يدَهُ من أسفلها[3].

وضَعْ خطًّا تحت: «فضاقت»، ثم سائِلْ نفسك: متى ضاق عليك ثوبٌ مِن ثيابك، فلم تستطِعْ أن تُخرِجَ يدك من كُمِّهِ للوضوء، فاحتجتَ إلى أن تُخرِجَ يدك من جهة رقبة الثوب؟

إذا رأيتَ رياح العفويَّة تهُبُّ، فتقتلع الزيفَ، وتُلغِي

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) غليظ الحاشية: أي أطرافه خشنة غير ناعمة.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

التجبُّر، وتَطمِس الكذب الذي يحيط به المتكبِّرون أنفسَهم: فاعلَمْ أنك بإزاء الرجُلِ النبيل محمَّدٍ ﷺ.

عظيمٌ في خرابةٍ

استوقَفني حديثٌ في صحيح البخاري، أو بالأحرى مقدِّمة الحديث هي التي استوقفتني كثيرًا، وسأكتفي بذِكرها؛ يقول عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: «بيْنا أنا أمشي مع رسول الله ﷺ في خِرَبِ المدينة، وهو يتوكَّأُ على عَسِيبٍ...» الحديث[1].

أتدري ما الخِرَبُ؟

إنها الأماكنُ المهجورة، التي هجرها الناسُ، وتمدَّدت على أرضها الحشائشُ غير النافعة، وهانت على أصحابها؛ فبات الناسُ يرمون فيها أمتعتَهم التي لا يحتاجون إليها!

هذه هي الخرابة، وتُجمَع على خِرَب!

فكان النبي ﷺ يمرُّ ومعه ابن مسعود بتلك الأماكن، فيسير فيها بكل تواضعٍ، وبلا أَنَفةٍ مزعومة، أو كِبْرٍ يرتدي ثوب العزة!

---

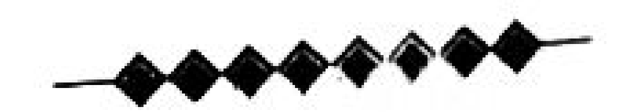
(١) رواه البخاري ومسلم.

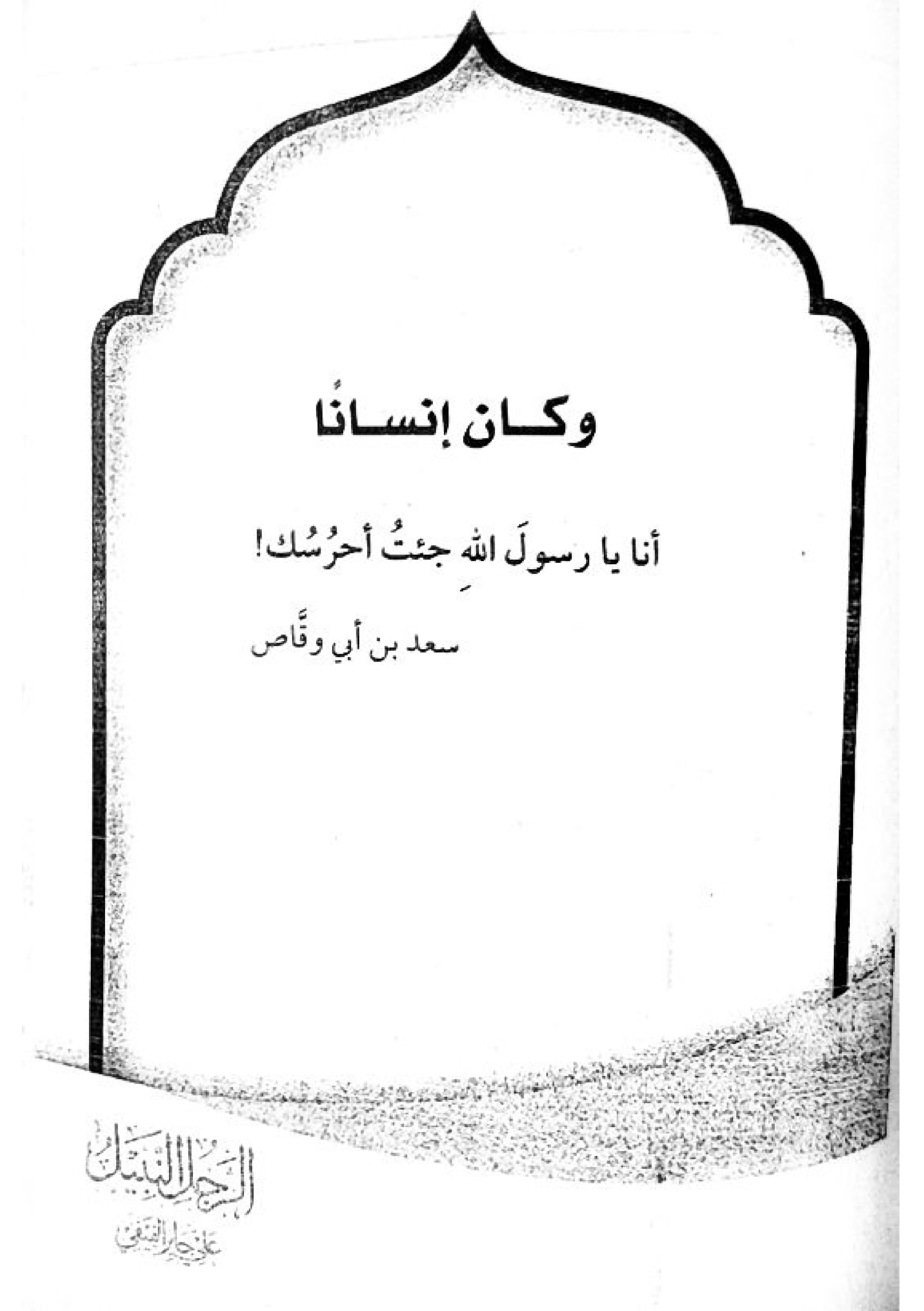
هو عليه الصلاة والسلام أعزُّ الناس، وأرفع الناس، دون أن يختار لقدَميهِ الأماكنَ الأكثر ثراءً!

لم يحتَجْ حتى يقنع الناسَ بأهميتِهِ إلى أن يمشيَ على السجاد الأحمر، ويلقيَ الـزرابيَّ على جانبيه، ويرسل فتيانَهُ أمامه ليحملوا المجامر التي ينبعث منها البَخُورُ الهنديُ الفاخر!

لقد استعاض النبيُّ ﷺ بحجارة المدينة السوداء عن السجادة الحمراء، وبالحشائش المنتشرة في تلك الخرائب عن الزرابيِّ المبثوثة، وبرائحة تراب المدينة الطاهر عن تلك المجامر المنضوِّعة طِيبًا!

أعظَمُ رجُلٍ التقت عين الرجولة به يمشي في خرابة بكل عظَمة، وبكلِ شموخ.. إن الشموخ لا يعني أن أصاب بصُدَاع المهابة، وأن أُقلِقَ مَن حولي وأُتعِبهم في اختيار ما ألبَس، وما أركب، وأين أسير، وكيف أتكلم! فأعظم العظَمة تسكن في أبسط البساطة.. وهذا ما كان النبيُّ ﷺ يريد أن يقنع العالَمَ به!





وكـــان إنســـانًا

أنا يا رسولَ اللهِ جئتُ أحرُسُك!

سعد بن أبي وقَّاص

وكـــان إنســانًــا

الإنسانيةُ شيءٌ تُبصِره في كل زاوية من زوايا حياته عليه الصلاة والسلام، ولا تستطيع أن تَنزِعَ صفةً من صفاته عن الإنسانية! فقد أراده الله إنسانًا ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

ففي رحمتِهِ إنسانية، وفي شجاعته إنسانية، وفي وفائه إنسانية، وفي غضبه إنسانية.. وفي إنسانيته أرقى معاني الإنسانية!

فقد كان النبيُّ ﷺ في كل فصول حياته يحاولُ أن يجدِّدَ معنى أنه إنسان؛ يغضب ويرضى كالبشر، يحبُّ ويَكرَه كالبشر، ويفرح ويحزن كالبشر.. ولكنه في أموره التي يكون فيها كالبشر يتفاعلُ معها تفاعلًا يجعله فيها ملاكًا في صورة بشر!

إن إنسانيتَهُ عليه الصلاة والسلام تريد منَّا ألا ننسَلَّ من احتياجاتنا، ولا نهرُبَ من أحاسيسنا العفوية، وألا نصنع لأنفسنا تماثيلَ ثم نطوف حولها!

لن تكون حيًّا إذا لم تتحرَّكْ مع الحياة وَفْقَ حركتها العادية؛

أن تَضحَكَ إذا استدعى الموقفُ، وتبكي إن اختلج قلبُك، وتَعجَبَ إن رأيتَ ما تهفو إليه النفوس، وتخاف إن تسلَّلتِ الرهبة إلى داخلك.

أن تكون إنسانًا تحرِّكُهُ الحياة بيدها، ويحرِّكُ الحياة برُوحه؛ هذا ما يريده محمَّد ﷺ، وهذا ما كان عليه.

إنسانيةٌ بحتةٌ

يقرِّرُ عليُّ بن أبي طالب ﵁ زوجُ فاطمة بنت النبي ﷺ أن يتزوَّجَ بامرأة أخرى؛ هي ابنةٌ لأبي جهل عدوِّ الإسلام الأول.

وهذه قضيةٌ لا مشكلةَ فيها من الناحية الدِّينية، فنمى الخبرُ إلى علم النبيِّ الإنسان ﷺ، فغَضِبَ، غضِبَ غَضْبةً بشرية، ثم صدَعَ بمقولته: «لا تجتمعُ ابنةُ رسول الله مع ابنة عدوِّ الله»[1].

وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنه لا يُحِلُّ حرامًا، ولا يحرِّمُ حلالًا، إذًا القضيةُ شخصية، لها عَلاقة بأبوَّته أكثر من عَلاقتها بنبوَّته.

إننا سنكون في ورطةٍ حقيقية لو بعث اللهُ لنا ملَكًا، لا يشعُرُ بما نشعر به من أحاسيسَ، ولا يعترضه ما يعترضنا مِن مشاعرَ

---

(١) أصل الخبر في الصحيحين.

وانفعالات بشرية بحتة!

لذلك؛ فقد قدَّر اللهُ على نبيِّهِ الكريم أن يكون إنسانًا؛ لنستطيعَ الاقتداء به، ونتفهَّمَ الشعور الإنساني كيف يفعل وهو يتعانقُ مع ذِرْوة الجلاء الوجداني، فلا يُلغِي الأوَّلُ الثانيَ، ولا يَدفِنِ الثاني الأولَ.

هو نبيٌّ عظيم، وإنسان كريم، لم يبعثه اللهُ تعالى ليخنُقَ معانيَ الإنسان في قلوب الناس، فلا يَغضَبون ولا يحبُّون، ولا يضحكون ولا يبكون، بل جاء ليعلِّمَهم كيف يبكون، ولكن بتجلُّدٍ، وكيف يضحكون، ولكن بوقارٍ، وكيف يحبُّون، ولكن برقيٍّ، وكيف يغضبون، ولكن بعقل!

علَّمَهم كيف يمزُجُون طبائعهم الأرضية بقِيَمهم السماوية؛ فينتج عن ذلك أعظَمُ مزيج.

بندُ العادية

ذاتَ يوم حصل خلافٌ بين جعفر بن أبي طالب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه حول ابنةِ حمزةَ بن أبي طالب بعد موته رضي الله عنه في غزوة أُحُدٍ، وأيهما أحَقُّ بولايتها.. فاقتنع النبيُّ ﷺ بحُجَّةِ جعفر؛ فجعل البنتَ في كفالته..

فماذا فعل جعفر؟

قام يحجُلُ حول النبيِّ ﷺ؛ وهو قَفْزٌ على قدَمٍ واحدة، بطريقة تعبِّرُ عن الفرح، فاستغرب النبي ﷺ ذلك التصرُّفَ، وسأله عنه، فأخبر أنه تفاعلٌ طبيعيٌّ، يفعله الحَبَشَةُ في مثل هذه المواقف السعيدة[1].

فلم يخْنُقِ النبيُّ الإنسانُ ذلك الشعورَ الإنسانِيَّ، وذلك الفعلَ العفوي، الذي اقتبسه جعفرٌ من أناس كفَّار! وإنما عَدَّهُ تصرُّفًا عاديًّا، يوضع تحت بند العاديَّة، ولا يستحقُّ حتى التعليق.. بل قد يجلب ابتسامةً، كثيرًا ما يرسلها النبيُّ ﷺ في مثل هذه المواقف؛ ففي رواية للقصة: أن النبي ﷺ قبَّلَ بين عينَيْ جعفرٍ، وقال له: أنت أشبَهُ الناسِ بخَلْقي وخُلُقي!

رعشـــةُ خـــوفٍ

وتحدَّثُنا ونتحدثُ كثيرًا عن شجاعتِهِ عليه الصلاة والسلام، وتوكُّلِهِ على الله، ولكن الله تعالى يقدِّرُ له ذاتَ ليلة أن يمَسَّ رُوحَهُ ما نشعر به من خوفٍ ورهبة؛ تقول عائشةُ رضي الله عنها: «أرِقَ رسولُ الله ﷺ ذات ليلة، فقال: ليت

(١) أخرجه أبو داود، وحسّنه العراقي.

رجُلًا صالحًا من أصحابي يحرُسُني الليلةَ! قالت: فسمعنا صوتَ السلاح، فقال رسول الله: مَن هذا؟ قال سعد بن أبي وقَّاص: أنا يا رسول الله، جئتُ أحرُسُك، فنام رسول الله ﷺ حتى سَمِعتُ غطيطَه»[1].

كيف كنَّا سنتعامل مع مخاوفنا البشريةِ لو لم يخَفِ النبيُّ ﷺ تلك الليلة؟ كيف كنا سنُزرِي ببعضنا لو صرَّح أحدُهم عن خوفٍ مَسَّ قلبه، أو رهبةٍ تسلَّلتْ إلى نفسه؟!

إنه الإنسان الذي تهُبُّ نسائمُ الرهبة على قلبه، فيتعامل معها بإنسانية؛ حتى لا يلوم بعضُنا بعضَنا.. حتى لا يظهر متقمِّصو النَّقاء والطهرانية فيقرِّعونا على رعشةِ خوف، أو دمعة همٍّ، أو انقباض هيبة!

المعادَلةُ الصعبةُ

لم يكُنِ النبيُّ ﷺ يعتقد أن الحياة مسجدٌ، كل ما فيها ذِكرٌ وصلاة وعبادة، بل إنه جاء ليجعل العبادة شيئًا أكبرَ من الصوم والصلاة.. إنّ العبادةَ أنْ تعيشَ في الحياة بالشكل الذي أرادك

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

الله أن تعيشه فيها.. إنّ العبادة أنْ تصلّيَ وتصومَ وتجاهدَ، وأن تنامَ وتأكلَ وتضحكَ.

إنّ هذه المعادَلةَ الصعبة على بعض الأنفس هي في حقيقتها خروجٌ من شكل العبادة، ودخولٌ إلى قلب العبادة النابض.

العبادة ليست أن تتحوّلَ إلى مَلَكٍ، وإنما أن تبقى بشرًا يسجد هنا، ويضاحكُ أهلَهُ هناك.

قعد عثمانُ بن مظعون يتعبّدُ، وفرَّغَ نفسه لذلك، فأتاه النبيُّ ﷺ فقال: «يا عثمان، إن اللهَ لم يبعثني بالرهبانيةِ، وإن خيرَ الدِّينِ عند الله الحنيفيَّةُ السَّمْحة»(1).

إذًا، كُنْ إنسانًا قبلَ وبعدَ وفي أثناء فعلِك للعبادة، تكُنْ حنيفيًّا سَمْحًا..

هذا ما علَّمَهُ النبيُّ ﷺ لأصحابه؛ بقوله، وبفعله، وفي تفاصيلِ حياته كلها.

---

(1) أخرجه ابن سعد، وحسّنه الألباني.

أريـــدُ رؤيتَـــكَ!

يُخبِرُ أصحاب السِّيَر: أنَّ وَحْشيًا (قاتل حمزة) قَدِمَ إلى المدينة مسلمًا، فرآه النبي ﷺ، فقال: وحشيٌّ؟ قال: فقلت: نَعم، فقال النبي ﷺ: اجلس، فحدِّثْني كيف قتلتَ حمزة، قال: فحدَّثتُه، فقال النبي ﷺ: **«وَيْحك! غيِّبْ عني وجهَك، فلا أرينَّكَ»**، قال: فكنت أتنكَّبُ النبيَّ ﷺ حيث كان، حتى قُبِض[1].

كانت تفاصيلُ قصة مقتل حمزة مؤلِمَةً جدًّا، وكان حمزة ركنًا من أركان هذا الدِّين العظيم، أسلم فكان إسلامه فتحًا وعزًّا، وبات ضعفاءُ المسلمين بعد موته في منَعةٍ، فكيف تظنُّ أن تفعل نبضاتُ قلب النبيِّ الإنسان وهو يسمع قصة قتله الشنيعة؟ كيف ستتحرَّكُ الدماء في جسده؟ كيف سيتفاعل الإنسان فيه مع الوحشية في ذلك السرد الدموي؟

لا أريد رؤيتَك، غيِّبْ عني وجهك! حتى لا تعودَ صورة حبيبي حمزة وهو يصارع ألمَ اغتيال غادرٍ، حتى وإن كان في قلب معركة!

---

(١) القصة في صحيح البخاري بصيغة مقاربة.

اغتيال تشكَّل بريشةٍ ألوانُها الدماءُ والغدرُ، وقدرٌ من الوحشية لا بأس به.

لا تقهرني بالعاصفة، ثم تبحث عندي عن مطَرٍ!

هذا ما أراد النبي ﷺ أن يَفهَمَهُ وحشيٌّ، وكلُّ وحشيٍّ.

لم يقاوم النبيُّ ﷺ تلك المشاعر الإنسانية في ذاته، لم يحاول أن يستجلب معنى التسامح والهدوء النفسي والتصالح مع الذات، بل تَرَكَ الإنسانَ يتحدَّثُ؛ حتى نتعلَّمَ أنْ لا تعارض بين أن أكون جيدًا، وأن أكون رجُلًا يغضب إذا ما استُغضِبَ، فأرجوك لا تخنُقِ الإنسان في نفسي! سأتمالك قدرَ الاستطاعة، سأكظِمُ غيظي بكل ما أوتيتُ من صبر، ولكن إن عجَزتُ ذات يوم عن هذه الملائكيةِ، فلا توبِّخْني؛ فأنا إنسان!

فضَحِــــكَ

كانت لعبد الله بن روَاحـةَ جاريةٌ يستسِرُّها عن أهله، فبصُرتْ به امرأتُهُ يوما قد خلا بها، فقالت: لقد اختَرتَ أمَتَكَ على حُرَّتِكَ؟

فجاحَدَها ذلك، وأنكر.

قالت: فإن كنتَ صادقًا، فاقرأ آيةً من القرآن؛ لأنها تعلمُ أنه إن كان على جنابةٍ، فلن يقرأ القرآن!

فاحتال عبدُ الله عليها، وقرأ شيئًا من الشِّعر على أنه قرآنٌ، فقال:

شَهِدْتُ بأنَّ وَعْدَ الله حقٌّ
وأنَّ النارَ مَثْوَى الكافِرِينَا

قالت: فزِدْني آيةً.

فقال:

وأنَّ العَرْشَ فوقَ الماءِ طافٍ
وفوقَ العَرْشِ رَبُّ العالَمِينَا

ويَحمِلُهُ ملائكةٌ كرامٌ
ملائكةُ الإلهِ مقرَّبِينَا

فقالت: آمنتُ باللهِ، وكذَّبتُ البصَرَ!

فأتى رسولَ الله ﷺ فحدَّثَهُ، فضَحِكَ، ولم يغيِّرْ عليه[1].

(١) أخرج القصة ابن عساكر، وقال ابن عبد البر في الاستيعاب: رويناها من وجوه صحاح.

أرجوك استخرِجْ: «فضَحِكَ ولم يغيِّرْ عليه»، وكبِّرْها أضعاف المرات، واجعلها شعارًا لك في حياتك، مع هذه المواقف العفوية.

مع أن عبدَ الله أتى بأبياتٍ من الشِّعر على أنها كلامُ الله، ومع ذلك: «ضَحِكَ ولم يغيِّرْ عليه»!

عندما جاء الرجُلُ النبيل لم يخترع ثيابًا تُظهِرُ مَن يرتديها عظيمًا، فقط نفَضَ الغبارَ عن قميص الإنسانية، ثم ارتداه، وخرج.. عندها جمع التصنُّعُ ثيابَهُ في حقيبتِهِ، وقرَّرَ المغادرة!

أرأيتم إنسانًا استطاع أن يحافظ على الإنسان في نفسِهِ كمحمَّد ﷺ؛ ففي الوقت الذي شيَّدَ معانيَ الإيمان العميق في النفوس، لم يَخدِشِ الإنسانَ الذي يُغمِضُ عينه، أو حتى عينيه، عن بعض العفويَّاتِ التي تقع في طريقه..

مَسْحةُ مَلَكٍ

وكان عليه الصلاة والسلام يحبّ الجمالَ، ويلاحظ بلاغةَ القصيدة الجزْلة، وتهدُّجاتِ الصوت الأخَّاذ، وتقاسيم الوجه الملائكي.

لم يكُنْ تناسبُ القسماتِ أمرًا يُغمِضُ عينيه عنه، ولم يكُنْ تصاعدُ النبراتِ مما يرى أن الاهتمامَ به هو اهتمام بأمور لا تستحقُّ؛ بل كان يختار أجملَ الكلماتِ ليصفَ بها أجملَ ما وهب الله الناسَ من حوله، حتى يعلِّمَ البشريةَ التي أوشكت على دخول مرحلةِ التجنيط أن الجمالَ رقمٌ يجب الالتفات إليه، ومِيزةٌ يحرُمُ على الأرواح أن تتجاوزَها دون توقيعٍ ما.

تأخَّرتْ عائشةُ رضي الله عنها ذات ليلة، فاستبطئها النبيُّ ﷺ، فلما عادت، سألها عن سرِّ تأخُّرِها، فأخبرته أنّ: «في المسجد رجُلًا، ما رأيتُ أحدًا أحسَنَ قراءةً منه»[1].

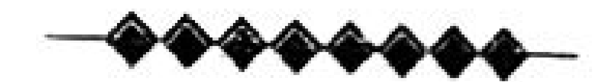
فهل تظنُّ أن النبي ﷺ سيضع نقطةً، لا! إنه الجمال الذي يأسره، يأخذ رداءَهُ عليه الصلاة والسلام ويخرج مسرعًا إلى المسجدِ؛ يريد أن يكتشفَ مَن هو صاحب ذلك الصوت الجميل! يقترِبُ مِن المسجد والصوتُ ينداح في أجواء المدينة، ويَزيدُ وضوحًا وسطوعًا، عرَفَهُ النبيُّ ﷺ، وكيف لا يعرفه وهو أحدُ أفراد دار الأرقم بمكّةَ، أحد المسلمين الأوائل؟! يمكُثُ طويلًا يستمع (كما تصفُ عائشة)، ثم يعود ويُخبِرُها أنه سالمٌ

---

(١) رواه أحمد، وقال عنه شعيب: حسن لغيره.

مولَى أبي حُذَيفة، ثم يقول: «الحمدُ لله الذي جعَلَ في أمَّتي مثلَه».

أتحدَّثُ عن اهتمامه عليه الصلاة والسلام، أم خروجه، أم طول مكثه مستمعًا، أم إعجابه، أم إنسانيته التي جمعت كلَّ ذلك الزخَمِ الجميل؟!



يقول لأبي موسى: «لو رأيتَني وأنا أستمعُ إليك البارحة، لقد أوتيتَ مزمارًا من مزاميرِ آل داود»[1].

إن تصنُّعَ عدمِ المبالاة لا يصنعُ العظماءَ؛ فالعظيم هو مَن لا تفوتُهُ التفاصيلُ المؤثِّرة، التي يجعل التعليقُ عليها الحياةَ أجملَ، والأرواحَ أكثر طُمأنينةً.

يصفُ عليه الصلاة والسلام جريرَ بن عبد الله البجَليَّ بأنَّ: عليه مَسْحةَ ملَكٍ[2].

ويخبرنا أن جبريلَ ينزل بصورة دِحْيةَ الكلبي.. مما يجعل

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

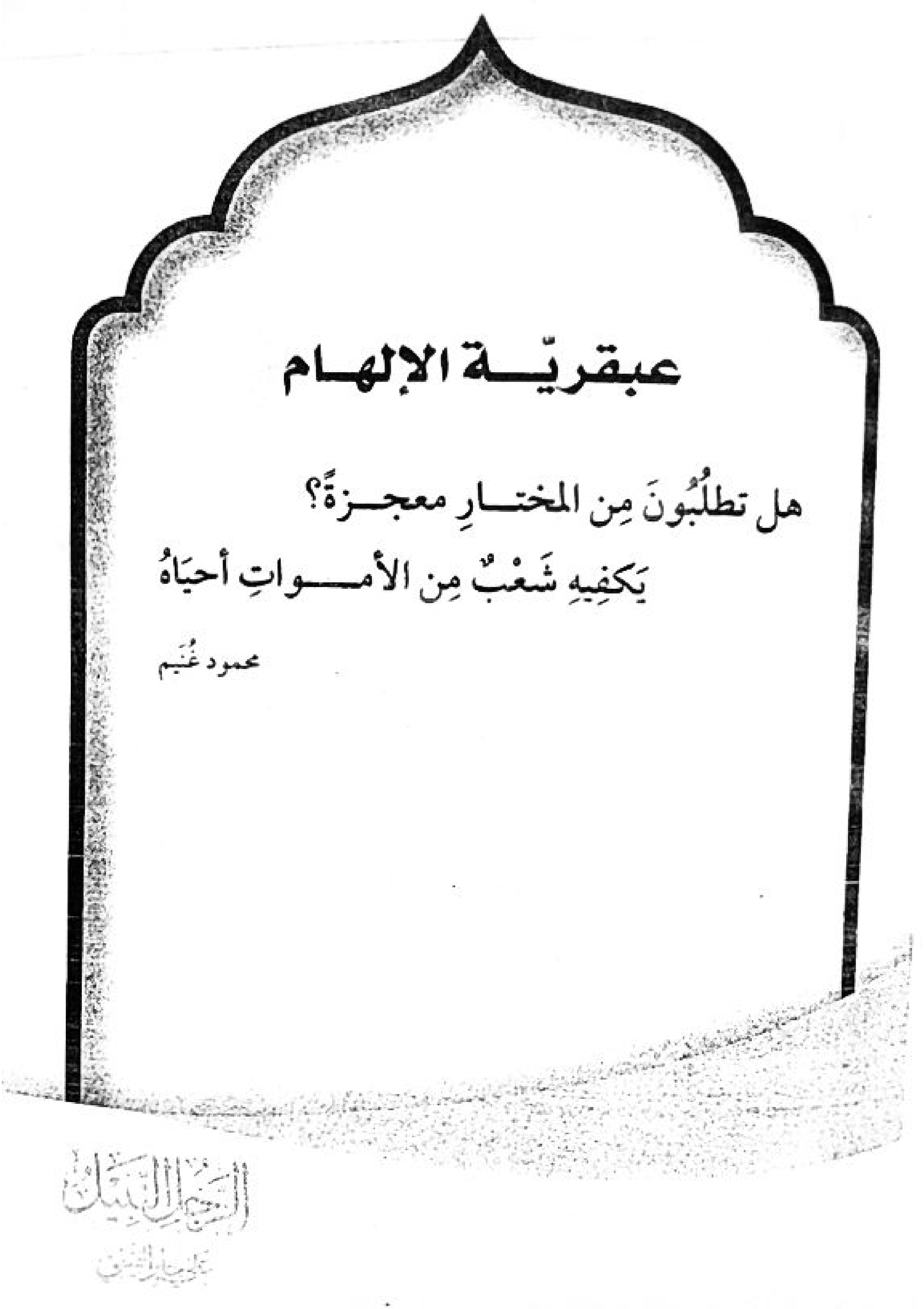
(٢) صحيح ابن حبان.

دِحْيةَ وغيرَ دِحْيةَ يعتقد أن هذا الاختيارَ ناجمٌ عن جمال دِحْيةَ الكلبي"[1].

إنّ تحوُّلَ الإنسان إلى صحراءَ قاحلة لا تُحِسُّ، ولا تَهَشُّ للجمال، ولا تعبِّرُ عن التفاتات الرُّوح، ليس شيئًا جيدًا، فضلًا عن أن يكونَ من مَنازعِ الرُّجولة، وسمات القيادة!

---

(١) رواه الطبراني والبيهقي.



عبقريّــة الإلهـام

هل تطلُبُونَ مِن المختــارِ معجـزةً؟

يَكفِيهِ شَعْبٌ مِن الأمــواتِ أحيَاهُ

محمود غُنَيم



عبقريـــة الإلهـام

كان النبي ﷺ يعيش مع أصحابه بنفسيةِ الأبِ، أو قُلِ: المعلِّمَ الملهِمَ، الذي يتأمَّلُ طويلًا في صحبِهِ واحدًا واحدًا، ثم يثيرُ في كل واحد منهم المعنى الذي إن أثير كما ينبغي، تفجَّرتْ به طاقاتُهُ، وحوَّلته إلى قوة دافقة.

كان يُبصِرُ ذلك الفارسَ الشجاع، فيخبره بأن شجاعتَهُ نادرة، فتتضاعف بذلك هِمَّتُه، ويغدو هِزَبْرًا يزأر في أوجُهِ أعداء الإسلام.

ويرى ذلك الشاعرَ الفحلَ، فيُعلِمُهُ أنَّ شُكْرًا خاصًّا أتاه من مَلِكِ الملوك على بيتٍ قاله، فتتحوَّلُ أحرُفُ ذلك الشاعر إلى قذائفَ تُقِضُّ مضاجعَ أناسٍ لا يرجون لله وقارًا.

ويسمع ذلك التاليَ المُجيدَ للقرآن، فيأتيه بيتَهُ، ويُقرِئه شيئًا من القرآن، فتمضي الأيامُ، فيغدو أشهرَ قرَّاءِ القرآن عبر التاريخ.

وهكذا كان النبي ﷺ مُلهِمًا، نافخًا رُوحَ الحياة في قلوب

مَن حوله، فيخرجهم بذلك مِن الهامش إلى المتن، ومن الانفعال إلى الفاعلية!

لقد نقل مواهبَهم من دائرة الميولات الشخصية، إلى حقلِ التأثير والبناء!

نفَضَ عمَّن حوله العاديَّةَ، وألبسهم ثيابَ العظمة!

وصدق الشاعرُ حين قال:

هل تطلُبونَ مِـــن المختـــارِ معجزةً؟
بَكفِيهِ شَعْبٌ مِن الأمـــواتِ أحيَاهُ

الشــــاعرُ؟!

قرأتُ قصةً في سير أعلام النبلاء، فأذهَلَني ما لهذا الإنسانِ العظيم من قدرةٍ خلَّاقة على فعلِ العجائب في نفوس أصحابه؛ تقول القصةُ:

إن قافلةَ حُجَّاجٍ انطلقت من المدينة إلى مكَّةَ قبل أن يهاجر النبيُّ ﷺ إلى المدينة، وكان معهم السيدُ العظيم البراءُ بن مَعْرور رضي الله عنه وأرضاه، فلما بلغوا مكةَ، أراد البراءُ أن يأتي النبيَّ ﷺ ليسأله عن أمرٍ ما، فأخذ معه ابنَ أخيه كعبَ بنَ مالكٍ

(وكان شاعرًا)، فلما وصلَا إلى المسجد، سألا أحدَهم عن النبيِّ ﷺ، فهما لا يعرفانِه، فسألهما ذلك الرجُلُ: أتعرفانِ العبَّاسَ؟ فقالا: نعم، فقال: فهو جالسٌ معه في المسجد..

فدخلَا المسجد الحرام فإذا هما بالعبَّاسِ والنبيُّ ﷺ بجواره، فذهبا وسلَّما، فسأل النبيُّ ﷺ العبَّاسَ رضي الله عنه: هل تعرفهما؟ فقال: نعم؛ هذا البراءُ بن مَعْرور سيِّدُ قومه، وهذا كعبُ بن مالك، فقال النبي ﷺ: الشاعرُ؟ يقول كعبٌ بعد ذلك: فوالله، ما أنسى قولَ رسول الله ﷺ: الشاعر؟"[1].

ما أجملَ الكلماتِ التي تمليها الرُّعودُ، ويكتبها المطر!

وكأني برذاذٍ يفوحُ برائحةِ الغيوم، يملأُ نفسَ كعب بن مالك بعد كلمة: «الشاعر؟».

ليس ذكاءً، وإنما عبقرية فذَّة، وهداية نورانية، استطاعت أن تأتيَ بكلمة واحدة: «الشاعر؟» فتحوِّلَها إلى جزءٍ لا يتجزَّأ من تاريخ كعب بن مالك.

وكأنهُ عليه الصلاة والسلام كان في تلك اللحظات، وهو بعدُ في مكَّةَ، يخطِّطُ لتفاصيلِ الحياة الفكرية في المدينة،

(١) ذكرها الذهبي في سيرة الصحابي البراء بن معرور.

وأنه سيحتاج إلى عددٍ من الشعراء ليُعِيدوا صياغة الذِّهنية المسلِمة، وليَطمِسوا بالفضائل التي ستمتلئ بها أشعارُهم شيئًا من أوضار الجاهلية، فلم يفوِّتِ المناسبةَ التي يستطيع بها أن ينقُلَ شاعرًا مِن هامش التأثُّر، إلى متنِ التأثير.

مما يَبهَرُ كثيرًا في شخصية النبيِّ ﷺ: قدرتُهُ على قراءة مكوِّناتك في جزء من الثانية، ثم قدرته أيضًا على انتخاب خَصْلة العظَمة فيك، فينفخها بثناءٍ، أو اهتمام، أو بلَفْتِ نظرٍ فيحوِّلك إلى عظيمٍ تحتلُّ صفحة مهمة في سجلِّ النبوغ.

المِنبَـــرُ الملائـــكيُّ

وبما أنّا أتينا على ذِكْرِ الشِّعر، فلنعرِّجْ على تلك الخامة الفريدة، وذلك الصادح بالحق، وما الذي فعله النبيُّ ﷺ معه، وكيف استطاع إعادةَ تشكيل موهبتِهِ ليغدوَ الأوحد في فنِّه، والأبرزَ في بابه!

يأتي النبي ﷺ إلى المدينة، فإذا بأوجُهٍ جديدة، ومواهبَ جديدة، ومعادنَ جديدة، تحتاج إلى إعادة تشكيل وقولبة، بكيفيةٍ تضمن لتلك المواهب أن تتألقَ، وأن تتوجَّهَ لخدمة

الدِّين، والذَّوْد عن حياضه، فإذا بحسَّانَ بن ثابت، ذلك الشاعر الذي تبلورت موهبتُهُ قبل الإسلام بمدةٍ ليست باليسيرة، فيخرجه النبيُّ ﷺ من وصفِ الناقة، والتغزُّل بالمحبوبة، والوقوف على الأطلال، ليغدو شِعْرُهُ كتيبةً إعلامية تدُكُّ الصرحَ النفسي لكفار قُرَيش، فتجعله قاعًا صفصفًا لا ترى فيه عِوَجًا ولا أمتًا! ولكن كيف حدث ذلك؟!

يطلب النبيُّ ﷺ من فرسان الشِّعر في المدينة أن يهجُوا كفَّارَ مكَّةَ، لتغدوَ الكلمةُ سهمًا يُرمَى به في سبيل الله، فيأتي الشعراء، فلا يرضى النبيُّ ﷺ عن نبرة الهجاء التي في شِعرهم؛ فهو عليه الصلاة والسلام أعلَمُ بكفار قُرَيش، وبالذي يَنكَأ قلوبهم، وهذا الشِّعر الذي استمع إليه ليس من الخامة التي تناسب هذا الغرَض!

فيرسل النبيُّ ﷺ إلى حسَّانَ بن ثابت، فيأتي يَدلَعُ لسانَهُ حماسةً، ويقول شِعْرًا يصيب المَحَزَّ! ويكون على قُرَيش كرَشْقِ النَّبلِ، فيقول النبي ﷺ: «هجاهم حسَّانُ فشفى واشتفى»[1].

---

(١) رواه مسلم.

وتمضي الأيامُ، فيقرِّبُ النبي ﷺ مِنبرَهُ الخاص لحسّان لِيَصعَد عليه، ولا أحدَ يصعد عليه إلا حسانُ! ويقول له: «اهجُهم ورُوحُ القدسِ يؤيِّدُك»!

إن تشكيلَ صَلصال النفوس مهمَّةٌ جِدُّ صعبةٍ، ولا يُطِيقها إلا أولو العزمِ من البشر! وقد كان النبيُّ ﷺ سيِّدهم ولا شك.

جبريلُ الذي ينزل للمهمات الخاصة جدًّا؛ مثل: إنزال الوحيِ على الرسل، أو تدمير القرى الظالمة: بات يهبطُ خِصِّيصَى لأجل تأييدِ حسانَ بن ثابت بالمعاني والكلمات والقوافي!

فحوَّلتْ تلك الكلماتُ، وذلك التأييد الخاصُّ حسانَ إلى الرجُلِ الذي كانت قوافيه أوقَعَ على المشركين من النَّبْلِ؛ فصارت قصائده جنودًا، وشِعْرُهُ غزوةً مباركةً، وأبياتُهُ سهامًا تَنحَر معنوياتِ أعداء النبي ﷺ!

وبات حسانُ بعد ذلك موثِّقًا لمغازيه عليه الصلاة والسلام ومَشاهدِه، حتى إذا ما قرأتَ شِعْرَهُ كأنك حاضرٌ بدرًا، وأُحُدًا، وفتحَ مكَّة، وباتت تلك الموهبةُ الضائعة بين وصفِ الرحلة ووصف المرأة موهبةً تقودُ صاحبَها إلى جِنان الخلد بإذن الله!

ليَهنكَ العلمُ أبا المنذرِ

يحدِّثُ الصحابيُّ الجليل أُبَيُّ بن كعب ﷺ عن قصة ذلك الملهِمِ العظيم معه، فيقول: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا أبا المنذِرِ، أتدري أيُّ آيةٍ مِن كتاب الله معك أعظَمُ؟».

ليس سؤالًا عابرًا، إنه السؤال الذي ينقُلُ المسؤولَ من المنطقة الرَّمادية إلى دائرة الضوء، ويحوِّله من شخص عادي إلى شخصيةٍ غير عادية!

يقول أُبَيٌّ: فقلتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾، قال: فضرب صدري، وقال: «لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المنذِرِ»[1].

لقد تمَّ إعادةُ إنتاج الرُّوح بنجاح، وتم التحوُّلُ وَفْقَ قواعد الإلهام!

لقد أخرَجتْ هذه الكلمةُ أبا المنذِرِ من تلاوة القرآن إلى العيشِ مع القرآن، وما زال يصحو وينام مع آياتِ الكتاب العزيز حتى جاء اليومُ الموعود!

---

(١) رواه مسلم.

يخرج النبيُّ ﷺ من بيته قاصدًا بيتَ أُبَيِّ بن كعب، في زيارة خاصة جدًّا! زيارة تتضمَّنُ رسالةً ذات أهمية عالية، فيطرُقُ عليه البابَ، فيخرج أُبَيٌّ فإذا بأدفأ لحظاتٍ عمره تكون بانتظاره عند الباب، يقول النبي ﷺ: **«إن اللهَ أمَرَني أن أقرأ عليك: لم يكن الذين كفروا...»**![1].

إن كلمةَ «اندهاش» تبدو متواضعةً جدًّا إذا ما قارنَّاها بما شعَرَ به أُبَيٌّ رضي الله عنه، يقول أُبَيٌّ مختصِرًا سببَ ذلك الاندهاش الغريب:

اللهُ سمَّاني لك؟

أي: ذكَرَني باسمي، اللهُ رَبُّ العالمين قال: أُبَيّ بن كعب؟!

فيقول النبي ﷺ: «نَعم، اللهُ سمَّاك لي».

فيبكي أُبَيٌّ..

ولماذا لا يبكي أُبَيٌّ؟

ماذا صنَعتْ تلك الكلمة، وتلك الضَّربة التي على صدره، و«نَعم سمَّاك»؟ ماذا فعَلتْ بأُبَيٍّ؟

---

(١) صحيح ابن حبان.

لقد صنعتهُ تلك اللمساتُ الملهِمة مِن النبيِّ الأكرم، وأنشأته إنشاءً خاصًا، وحوَّلتْ خطَّ حياته من الأفقيِّ الأرضي، إلى العموديِّ السماوي.

حتى أولئك

بل حتى أولئك الذين يخفضون رؤوسَهم في مجامعِ القوم، ويوارون عيبًا في شخصياتِهم، وإعاقةٌ تصبُغُ أوجُهَهم بحُمْرة الخجل، يُقبِل إليهم برُوحه العظيمة، ثم ينفخ في ذلك العيبِ تحفيزَهُ، فلا يطول زمنٌ حتى يغدوَ ذلك الذي يخفض رأسه رافعًا له، وتحوِّل اليدُ النبوية الحانية ذلك العيبَ إلى مِيزة، وتلك المَثلَبةَ إلى مَمدَحة!

فهذا صفوانُ بن معطَّلٍ ﷺ يستثمر النبيُّ ﷺ ثِقَلَ نومه ليكونَ دائمًا في آخرِ الرَّكْبِ، فيحمل أيَّ متاع سقَطَ من الجيش، وكان هو الرجُلَ الذي وجد في طريقه عائشةَ رضي الله عنها.

وهذا عبدُ الله بن أمِّ مكتوم الأعمى، يغدو مؤذِّنَ النبيِّ ﷺ، والرجُلَ الذي يستخلفه النبيُّ ﷺ على المدينة في بعض مغازيه.

ويأتي على بعضِ مَن بهم مَنقَصة ما، فيَلفِت أنظارَ مَن حوله إلى أشياءَ جميلة في رُوحه؛ ليمحوَ الجاهليةَ العالقة بأطراف

نفوسهم، ويُذيبَها في كأسٍ من الإيمان.

فهذا عبدُ الله بن مسعود، تكشف الريحُ ثوبَه، فيضحك الناس لدقَّةِ ساقَيْهِ، فيحوِّلُ الرجل الملهِمُ تلك الساقينِ إلى مثار فخرٍ واعتزاز عند ابن مسعود؛ بقوله عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده، لهما أثقَلُ في الميزان من جبَلِ أُحُدٍ»![1].

وهذا جُلَيبيبٌ، ذو الوجهِ الذي لا يرتاح له الناس، يقف النبيُّ ﷺ وقفة خاصة عند استشهاده، ويقول للناس: «ولكنني أفقِدُ جُلَيبيبًا»[2]؛ ليَفهَمَ الناسُ أن القضيةَ قضيةُ أرواح مؤمنة لا أوجه جميلة! فتضؤُلَ لديهم قيمةُ الوسامةِ والتناسق الخَلْقي في مقابل تصاعدِ قيمة القلب الذي يَنبِضُ بلا إلهَ إلا الله.

وهذا زاهرٌ، رجُلٌ من البادية، يُشبِهُ رمال (النُّفُودِ)، يُقبِل إليه ويحتضنه أمام جمعٍ من الصحابة، يوَدُّ كل واحد أنه هو الذي عانقه النبيُّ العظيم، ثم يقول مازحًا: «مَن يشتري العبدَ؟ مَن يشتري العبد؟»[3].. فيقول زاهرٌ: إذن تجدَني كاسدًا يا رسول الله، فيقول النبيُّ ﷺ: «ولكنَّك عند الله لستَ بكاسدٍ»، هنا

---

(١) صحيح ابن حبان.

(٢) رواه البيهقي على شرط مسلم.

(٣) خبر زاهر أخرجه أحمد وغيره، وهو على شرط الشيخين.

تفتَّتُ بقايا الجاهلية تمامًا، وتهبُّ نسائمُ: «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»؛ لتبعثِرَ هشيمَ الجاهلية في صحراء النسيان.

الأبراجُ المشيَّدةُ

وما زال النبي ﷺ ينثُرُ كلماتِهِ الملهِمةَ، التي تحوِّلُ ذلك الطينَ البشريَ إلى أبراج مشيَّدة، فيرجع إليها البصرُ فلا يرى فُطورًا.

فيرى اهتمامَ مُعاذ بن جبل بالعلم، فيوقِّعُ له بأن: «مُعاذًا يسبق العلماءَ يوم القيامة برَتْوة»[1].

ويرى انكبابَ زيد بن ثابت على تعلُّمِ الفرائض، فيهمس بأن: «أفرضكم زيد»[2].

ويرى قلبَ أبي عُبيدة المعجونَ بالأمانة، فيقول عنه: «أمينُ هذه الأمَّة»[3].

وتَبهَره بسالةُ طَلْحةَ يوم أُحدٍ، فيعلِّقُ عليه وسامَ: «مَن سرَّه

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، وصححه الألباني بمجموع طرقه.

(٢) رواه أحمد والترمذي، وحسَّنه ابن حجر في الفتح.

(٣) رواه أحمد، وصحَّحه شعيب.

أن ينظُرَ إلى شهيدٍ يمشي على وجه الأرض، فلينظُرْ إلى طَلْحةَ بن عُبَيد الله»[1].

ويسأله أبو هُرَيرة عن أسعدِ الناس بشفاعته يوم القيامة، فيَزيده نهمةً في العلم بقوله: «لقد ظننتُ ألا يسألَني عن هذا الحديثِ أحدٌ أوَّلُ منك»[2].

ويشعُرُ بصِدْقِ أبي ذرٍّ الذي تجاوز كلَّ صِدق، فيقول عنه: «ما أقلَّتِ الغَبْراءُ مِن ذي لهجة أصدَقَ مِن أبي ذرٍّ»[3].

ويَلْمَحُ سيفَ خالد بن الوليد الذي سلَّطه اللهُ على الأعداء، فيقول عنه: «سيفٌ مِن سيوف الله»[4].

ويَظُنّ في قلبِ عبد الله بن عمرَ من الزكاء والنقاء، فيقول: «نِعْمَ الرجُلُ عبدُ اللهِ؛ لو كان يصلّي من الليل»[5].

يقول عنه أصحابُهُ: فكان ابن عمرَ بعدها لا ينام من الليل إلا قليلًا!

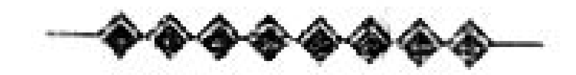
---

(١) رواه الترمذي.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه الحاكم بسند صحيح.
(٤) رواه الترمذي، وصحّحه الألباني.
(٥) رواه البخاري ومسلم.

وهكذا يسير بين أصحابه، ويلقي بكلماتِ الثناء والتشجيع؛ ليصنعَ ذلك الجيلَ الذي من الصعب، بل المستحيل أن يتكرَّر، الجيل الذي لا وجودَ فيه لشخص لا مِيزةَ له!

لم يَحرِصْ عليه الصلاة والسلام على إخراج أحدٍ من أصحابه من حيِّزه الذي خلَقَهُ اللهُ فيه وله، وإنما وظَّفه، وأنعش خصائصه، فباتت تمورُ وتدور حول معاني الفضيلة، وحول حماية جَناب الدِّين، وحول الدفاع عن نبيِّ الإسلام الأعظم.

وهكذا تستمرُّ هذه الإشراقات التي صنَعَ بها جيلًا لم يتكرَّرْ في التاريخ، وهي تُنبِئُ عن شخصيةٍ قائدة، تستطيع أن تُمسِكَ صَلْصال الأرواح، ثم تشكِّلَهُ وَفْقَ مقاييس الجودة العالية، ليغدوَ مِن حوله جبالًا في الجبال، وبحارًا في البحار.





«خدَمتُ النبيَّ ﷺ عَشْرَ سنين، فما قال لي: «أفٍّ» قطُّ، وما قال لشيءٍ صنَعتُهُ: لِمَ صنَعتَهُ؟ ولا لشيءٍ ترَكتُهُ: لِمَ ترَكتَهُ؟!

أنس بن مالك

رحيــقُ البـــراءةِ

قد تظنُّ وأنت تقلِّبُ أوراقَ سيرة النبي محمَّدٍ ﷺ أن تلك التفاصيلَ الساخنة، وتلك الأحداث المتتابعة: ستملأ حياتَهُ لدرجةٍ سيكون صعبًا معها أن يتحدَّثَ في يوم مِن الأيام مع صبيٍّ، أو أن تسيلَ دموعُهُ بسبب طفلٍ يجُودُ بنفسِه، أو أن يداعبَ صغيرًا في السنِّ!

ستتفاجأ عند تقليبِك لأوراقِ أيامِ هذا النبيِّ الأعظم: أنه لا يكادُ يكونُ هناك شيءٌ مِن النُّبْلِ إلا وله في حياته مكانٌ ومكانة، بل إنك إن دقَّقتَ فيه، اجتالَتْكَ مشاعرُ تجعلك تظنُّ أن هذا الخُلُقَ أو هذه الصفة هي الأهَمُّ والأبرز، بل هي التخصُّصُ الوحيد الذي اعتنى به النبيُّ ﷺ اعتناءً خاصًّا.

وفي هذه الأسطر، سترى النبيَّ وهو يخوضُ الحياةَ بتفاصيلها، فكما أنه يتحمَّلُ مهامَّ نشرِ الدِّين بكل ما يكتنفُ ذلك من أتعابٍ وإجهادات، فهو كذلك يَحمِلُ الطفلَ الصغير، ويُناغِي البراءةَ، ويَمسَح رؤوس الأيتام.

❀ أذهبتَ؟

مِن أشهرِ أطفال الصحابة: «أنسُ بن مالك»؛ فقد مكث خادمًا عند النبيِّ ﷺ عَشْرَ سنين، فنقَلَ صُوَرًا مِن تعامله عليه الصلاة والسلام مع الأطفال، تَجعَل النظرياتِ التربوية تبدو بدائيةً بإزاءِ ما كان يَعمَله مع أصغَرِ طفلٍ في المدينة!

يفاجئُ النبيُّ ﷺ أصحابَ الأوامرِ والنواهي بأسلوبٍ تسقُطُ فيه تلك الأوامر والنواهي! يقول أنسٌ: "خدَمتُ النبيَّ ﷺ عَشْرَ سنين، فما قال لي: «أفٍّ" قطُّ، وما قال لشيءٍ صنَعتُهُ: لِمَ صنَعتَهُ؟ ولا لشيءٍ تركتُهُ: لِمَ تركتَهُ؟»"[1].

لا يمكنُ أن يكون أنسٌ ﷺ ملكًا لا يخطئ! مِن المؤكد أن هناك ما يَندُّ عنه؛ فهو طفلٌ، والطفولة مقترنةٌ بشيءٍ من الأخطاء العابرة، والتعثُّرات اليسيرة، فترَكَ الرجُلُ النبيل تلك الأخطاءَ والتعثُّرات تصقُلُ شخصيةَ أنسٍ، وتصنع نظرتَهُ الخاصة، فلم يعنِّفْهُ في يوم، بل لم يُبدِ ملاحظةً على تصرُّفاته الطفولية!

وفي إحدى المراتِ، يرسلُهُ لحاجةٍ، فيخرُجُ ويَلقَى في طريقه

(١) رواه الترمذي، والبخاري ومسلم بنحوه.

صبيانًا يلعبون، فينشغل عن حاجةِ النبي ﷺ بأولئك الصبيان، فيلعب معهم كما تفعل الطفولةُ دائمًا، لا شيءَ يَثنيها عن اللَّعِب، ولا أهميَّةَ لشيءٍ تفوق أهمية المَرَحِ، فيخرج النبيُّ ﷺ فيراه وقد اصطبغ بالسعادة، فيذهب إليه مِن خلفه، ويُمسِك بقفاه، ثم يقول له: «يا أُنيسُ، أذهَبتَ حيث أمرتُك؟»[1]، فيقول: نَعم أنا أذهبُ يا رسول الله.

هل هذا وقتُ أن يدلِّلَـهُ بـ «أُنَيس»؟ أهذا وقتُ أن يُمسِكه من قفاه بلُطْفٍ؟!

لدى هذا الرجُلِ النبيل وقتٌ لفعلِ كل جميل، وقدرةٌ عجيبة على أن يكونَ إنسانًا راقيًا في كل مواقفِ حياته، وأن يكون أنيقًا لدرجة يُلجِمُنا معها الذُّهول!

يا أبا عُمَيـــــر

وكان عليه الصلاة والسلام يجدُ في صخب الحياة وقتًا كافيًا ليداعبَ أولئك الصغارَ المنتشرين في أزقَّةِ المدينة، وأن ينحنيَ ليَمسَح على رؤوسهم، وأن يَزرَع الابتسامة في ثغورِهم الصغيرة!

---

(١) رواه مسلم.

افتقد النبيُّ ﷺ مرَّةً أبا عُمَير (أحد صبيان المدينة)، فسأل عنه، فقيل له: مات عصفورُهُ الصغير، فذهب إليه معزِّيًا، وقال له: «يا أبا عُمَير، ما فعَلَ النُّغَير؟»[1].

حتى الهمومُ الصغيرة كان يستطيع أن يجدَ في قاموسه كلماتٍ تناسبها، ولمساتٍ تُهدهِدُها!

يقول أنسٌ: «ربما قال لي النبيُّ ﷺ (ممازحًا): يا ذا الأُذُنَيْنِ»[2].

إنها العذوبةُ التي لم يسمع عنها كثيرٌ ممن يظنُّ الحياةَ لا تستقيم إلا بالصرامة!

كان يقول عن الحسَنِ والحُسَينِ رضي الله عنهما: «هما رَيحانتايَ مِن الدنيا»[3].

يلتقط أبو هُرَيرة لقطةً نادرة، امتلأت بشيئينِ: بالعفوية، والعظَمة؛ يقول رضي الله عنه: «كان رسولُ الله ﷺ يَدلَعُ لسانَهُ للحسَنِ بن علي، فيرى الصبيُّ حُمْرَةَ لسانه، فيَهَشُّ إليه»[4].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أبو داود.

(٣) رواه البخاري.

(٤) رواه ابن حبان في صحيحه.

لا تستغرِبْ من الرجُلِ الذي كان يقف كالأسد في كَبِدِ المعارك، ويرفع سيفَهُ في وجوه وحوش البشر، أن يكونَ هو نفسه الرجُلَ الذي يَدلَعُ لسانَهُ للحسَنِ، إنه الرجُلُ النبيل الذي جعل الحبَّ في متناول الجميع.

عِنَبُ الطائفِ

كان الأطفالُ يعرفون جيدًا أنهم مع إنسانٍ يفهم مشاعرَهم، ويعرف جيدًا احتياجاتهم؛ لذلك فهم لا يهربون منه في الطرقاتِ، ولا يَكذِبون عليه إن مادَتْ بهم طفولتُهم ذاتَ يوم.

يحدِّثُنا النعمانُ بن بشير عن قصةٍ حدَثَتْ له وعمرُهُ لم يتجاوز ثمانيَ سنواتٍ؛ يقول: أُهدِيَ لرسولِ الله ﷺ عِنَبٌ من الطائف، فقال: «خُذْ هذا العُنقودَ فأبلِغْهُ أمَّكَ»، قال: فأكَلتُهُ قبل أن أبلِّغَهُ إياها، فلما كان بعد ليالٍ، قال: «ما فعَلَ العنقودُ؟ هل بلَّغتَهُ؟!»، قلتُ: لا، فسمَّاني غُدَر![1].

هكذا بكل بساطة، لا دروسَ في الأمانة، ولا محاضراتِ في أهميةِ طاعة الكبار، يقرُصُ أُذُنَهُ بحنانٍ، ويلقِّبُهُ غُدَر؛ كما

(١) رواه ابن ماجه.

بِفعل الرحماءُ مع الأطفالِ الأشقياء، أولي الملامح البريئة جدًا، والتصرُّفات اللذيذة جدًا.

بـل يســتحيلُ..

تأتيه طفلةٌ صغيرة، اسمُها أُمامةُ بنت العاصِ، وهو يصلي، فتتعلَّقُ بعاتِقِهِ، فإذا سجد وضَعَها، وإذا قام حمَلَها[1].

إذا أردتَ أن تُشِيعَ النُّبْلَ بين الناس، فلا تحدِّثْهم عن الحنان والرحمة والأبوَّة؛ يكفي أن تحدِّثَهم عن ذلك الرجُلِ النبيل عليه الصلاة والسلام.

يذهب إلى الصلاةِ ومعه الحسَنُ والحسين، فيصلي بالناس، فيُطِيلُ إحدى السَّجَدات، ثم بعد الصلاة يسأله الصحابةُ عن تلك السجدة الطويلة، ويخبرونه أنهم ظنُّوا أمرًا ما عرَضَ له، أو أن وحيًا ما أوحيَ إليه، فيخبرهم - بأبي هو وأمِّي - أن القضيةَ أيسَرُ مِن كل هذا: «كلُّ ذلك لم يكُنْ؛ إن ابني هذا ارتحَلَني، فكَرِهتُ أن أُعجِلَهُ حتى يقضيَ حاجته»[2].

---

(١) الخبر في البخاري ومسلم.

(٢) رواه أحمد وغيره بألفاظ متقاربة.

هنا يمكنك أن تندهشَ إن شئتَ! فهذه صلاةٌ، وهؤلاء أناسٌ جاؤوا ليصلُّوا، ومع ذلك فالطفولة تتمدد كيفما شاءت، لا شيءَ يعكِّرُ صَفْوَها الجميل، بل إنه عليه الصلاة والسلام لم يَسمَحْ لحفيده أن يرتحله في الصلاة فحسبُ، بل طوَّلَ في السجود حتى تَتِمَّ لذلك الطفلِ سعادتُهُ؛ فيَرْوَى حنانًا، ويمتلئَ أمانًا.

كان عليه الصلاة والسلام يستخدمُ الطفولةَ الجميلة لينتزع بها الوحشيةَ من قلوب البشر شوكةً شوكةً، يجلس معه أحدُ الأعراب، فيدخُلُ في هذه الأثناء الحسن ﵁ وهو بعدُ طفلٌ صغير، فيقبِّلُهُ النبي ﷺ، فيسأل ذلك الأعـرابيُّ بفظاظةٍ: أتقبِّلون الأطفالَ؟ إن لي عشرةً منهم ما قبَّلتُهم!

يظنُّ أن ذلك من بروتوكولات الرُّجولة! ويعتقد أن الحياةَ أضيقُ من أن تتحمَّلَ قُبْلَةً على خَدِّ طفل! فيأتي معلِّمُ الناسِ الحنانَ ليقول لذلك الأعرابي: «أَأَملِكُ أن نزَعَ اللهُ الرحمةَ مِن قلبك؟!»[1].

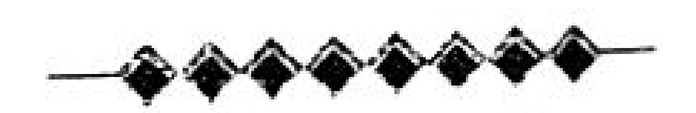
---

(١) رواه البخاري ومسلم.

إنها الرحمة التي جعَلتْ رحيقَ الإنسانية المتمثِّلَ في الأطفال يشكِّلُ جزءًا من اهتمام ذلك القلب الكبير.

كان يحبُّهم، ويسمِّيهم، ويلقِّبُ بعضهم، ويداعِبُهم، ويحنِّكُهم عند ولادتهم، وتسيل دموعُهُ عند لقطات الوجَعِ التي تصيبهم.

إنه الرجُلُ النبيل، الذي اتسع قلبُهُ لكل ما هو إنساني، وبات أيقونةَ الإنسان العظيم، الذي لا يصعُبُ أن يتكرَّرَ، بل يستحيلُ!





رائحـــةُ المطَـــرِ

«لأقولَنَّ شيئًا يُضحِكُ النبيَّ ﷺ»

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

رائحــــةُ المطَــــرِ

لما بعَثَ اللهُ نبيَّهُ عليه الصلاة والسلام رحمةً للعالَمين، لم يُرِدْهُ سبحانه أن يكونَ إصرًا وغُلًّا على البشريةِ، بل أراده أن يكون نسيمًا يهُبُّ عليهم بحنانِهِ ورحمته، أراده أن يكون جمالًا وكمالًا وجلالًا تتشوَّقُ إليه الأرواحُ؛ فجاء وجاءت معه الابتسامةُ؛ ذلك السِّحْرُ الذي يجعل النفوسَ تهفو، والأرواحَ تَحِنُّ، والأفئدةَ تخفُقُ.

كان عليه الصلاة والسلام بسَّامًا.. ينثُرُ ابتساماتِهِ وضحكاته بعاديَّةٍ لا تُشبِهُها عاديَّة، وكأنه يريد أن يقول للناس: كونوا كما أنتم، اضحكوا، ابتسموا.. فالحياة سوداءُ دون قهقهاتٍ بريئة، والأزقَّةُ ضيِّقَة جدًّا دون ملامحَ مشرِقة، والنفوس متعَبة دون عاديَّةٍ تدفن التمثيلَ الزائف، والتزويق الكاذب، والتصنُّع البارد الباهت.

فتُمطِرُ الحياةُ

قال عمرُ بن الخطاب ذاتَ يوم وقد رأى كدَرًا يعلو وجهَ نبيِّ الله: «لأقولَنَّ شيئًا يُضحِكُ النبيَّ ﷺ»[1].

---

(١) القصة في مسلم.

عجيبٌ! ما أجلَهُ مِن إنسان يعرفُ مَن حوله مفتاحَ ابتسامته، بل يعرفون أنه يبتسمُ ويَضحَك حتى تبدوَ نواجذه.

إن الذُّهولَ يَسحَبُ كرسيًا ثم يجلس إزاء هذا العظيمِ ويتأمّلُ ملامحَه!

قولوا للمتجهِّمين، أولئك الذين يَعقِدون بين حواجبهم لإشاعة الهيبةِ في قلوب مَن حولهم: لقد جاء محمَّدٌ، وانتهى مفعولُ هَيْبتكم الزائفة! جاء محمَّدٌ؛ فانصرِفوا.

جاء الرجُلُ الذي ينثُرُ الابتسامةَ فيمن حوله، فتُزهِرُ الأرواحُ.

يقول جَرير بن عبد الله البجَليُّ ﷺ: «ما رآني رسولُ الله ﷺ منذ أسلَمتُ إلا تبسَّمَ في وجهي»[1].

أيُّ دفءٍ كان يستشعره جَريرٌ والنبي الأكرمُ يَلْقاه في ذهابه وإيابه بابتسامتِهِ، فتُمطِرُ في رُوحِهِ الحياةُ؟!

ويأتي عبدُ الله بن الحارث بن جَزْءٍ ﷺ يُدلي بشهادتِهِ الغريبة، وهو الرجُلُ الذي عاصرَ مئات بل ألوفَ البشر، وخبَرَ طبائعَهم، ورآهم في رضاهم وغضبِهم، فيقول: «ما

(١) البوصيري في إتحاف المهرة، ورواته ثقات.

رأيتُ أحدًا أكثرَ تبسُّمًا من رسول الله ﷺ»[1].

إذًا، ما قيمةُ تصنُّعِ المهابة، وتقطيب الجبهة، وهذا أهيَبُ إنسانٍ تكاد تكونُ الابتسامة ملازِمةً لقسَمات وجهِهِ الوضيءِ؟!

وهذا سِمَاكُ بن حرب، تابعيٌّ، أرهَقَ الشوقُ إلى الحبيب محمَّد ﷺ فؤادَهُ، يُقبِلُ على جابر بن سمُرةَ، يريد أن يُشبِعَ أشواقه، فيسأله: أكنتَ تجالسُ النبيَّ ﷺ؟ فيجيءُ الجواب من جابرٍ صادمًا ومهيِّجًا أعماقَ أعماقه: «نَعم كثيرًا».

وما أحرَقَ «كثيرًا» هذه على نفسِ سماكِ بن حرب، وكأن شيئًا في داخله يقول: وَدِدْنا لو ظَفِرْنا بقليلٍ!

ثم يريد جابر أن يلخِّصَ «كثيرًا» تلك في ومضةٍ خاطفة، تختصر عُمُرًا قضاه مع النبيِّ ﷺ، فلا يجد إلا الابتسامةَ عنوانًا لذلك العُمُرِ الحافل بالجمال؛ يقول ﷺ: «كان لا يقوم مِن مصلَّاه الذي يصلي فيه الصبحَ حتى تطلُعَ الشمس، فإذا طلَعتْ قام، وكانوا يتحدثون، فيأخذون في أمرِ الجاهلية، فيَضحكون.. ويتبسَّمُ»[2].

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) رواه مسلم.

لم يكُنِ الطيِّبُ المطيِّبُ ينهاهم عن الأحاديثِ التي تدور تفاصيلُها حول أيام الجاهلية، وما كان فيها مِن طيشٍ ونزَقٍ! بل كان يشاركُهم بابتسامته الحبيبة، وكأنه توقيعُ رضًا، وخَتْمُ موافَقة على العاديَّة، وعدم أخذِ الحياة بتكلُّفٍ.

فكـرةُ الابتسـامةِ

والابتسامة فوق كونها خَصْلةً نبوية، وطبيعة محمَّدية، لا يمكن فصلُها عنه عليه الصلاة والسلام؛ إلا أنها تنبع أيضًا من فكرةٍ مُقنِعة، يختصرها النبي ﷺ في قوله: «إنكم لن تسَعُوا الناسَ بأموالكم، ولكن يسَعُهم منكم بَسْطُ الوجهِ، وحُسْنُ الخُلُقِ»[1].

فهو عليه الصلاة والسلام لم يكتفِ بأن جعل الابتسامةَ جزءًا لا يتجزَّأُ من ملامحه؛ فقد عَلِمَ أن هناك من الناس مَن تنقُصُهُ موهبةُ الاقتناص، والتمثُّل التلقائي؛ فانتقل مِن الشكل الجمالي المقنِع للابتسامة إلى المعنى الضِّمني؛ وهو احتواء الناس وكَسْبُهم؛ فبَسْطُ الوجهِ هو التفسيرُ شِبْهُ الحرفيِّ للابتسامة.

---

(١) رواه المنذري في الترغيب، وحسّنه الألباني.

ولهذا؛ فقد كان النبيُّ ﷺ يَخطَفُ الأرواحَ خَطفًا، ولا يتمالك القادمُ إليه نفسَه حتى يغدوَ أحدَ أتباعه؛ يَنهَل منه العلمَ، والإيمان، والابتسامة.

في أحلَكِ الظروفِ

وإذا أردتَ أن أحدِّثك بالعجائبِ، فسأحدِّثُ عن فَضالةَ بن عُمَير اللَّيْثيِّ، رجل جاء لمهمَّةٍ صعبة، كانت مهمَّتُهُ اغتيالَ النبي ﷺ! وقد كان متقِنًا الدورَ الذي جاء لأجله، لدرجة أنه انتحل شخصيةَ الرجُلِ المسلِم، الذي أتى لأجلِ أن يَغسِلَ ذنوبه بجوار الكعبة المشرَّفة، وها هو ذا يقتربُ شيئًا فشيئًا من النبيِّ ﷺ، ويُظهِرُ ملامح المتخشِّع المتبتِّل، الذي أذهَلَهُ ذِكْرُ الله عمَّا حوله، فلما انفصلت المسافاتُ بينه وبين النبي ﷺ، ويدُهُ متمكِّنة من خَنجَرِهِ، التفتَ إليه النبيُّ ﷺ وقال له متسائلًا: فَضالةُ؟ فيرُدُّ بصوتٍ خاشع: نعم فَضالةُ يا رسول الله، فيسأله النبيُّ - ولعله كان ينظُرُ إلى عينَيْهِ -: ماذا كنت تحدِّثُ نفسَك؟

فيقول فَضالةُ: لا شيء، كنت أذكُرُ اللهَ!

لا شيء! أيُعقَل أنه لا شيءَ يا فَضالةُ؟

والمعركة التي أضمرتها في داخلك، ما هي؟ ورائحة الموت المنبعثة من جسدك، ما الذي أتى بها؟ والألحان الجنائزية التي تكلّلُ خطواتك، من الذي يعزفها الآن؟ يقول فَضالةُ: فضَحِكَ النبيُّ ﷺ، ثم قال: استغفِرِ الله.. ثم وضع يدَهُ على صدري.. يقول: فوالله، ما رفَعَها حتى ما مِن خَلْقِ الله شيءٌ أحبَّ إليَّ منه[1].

ليس سهلًا أن تُبصرَ حربًا قادمة إليك فتَضحَك لها! أن ترى الجيوش بين أثنائها النَّقْعُ فتبتسم.. ولكنه محمَّدٌ!

ما إعرابُ جملة «فضحك النبي» في هذه القطعة الاغتياليةِ المخيفة؟

ما موقعُ تلك الضحكة الفريدة من الإعراب؟

ما المعنى الذي خرَجَ من خلالها؟

وكيف يمكن لفَضالةَ تفسيرُ ذلك الضحك النبوي العَذْبِ في هذا الموقف النادر؟

إنها النفسُ التي باتت أقوى من الاغتيالات، وأشجَعَ من السيوف، وأبعَدَ الشمس!

---

(١) هناك من يضعّفُ هذه القصة، ولكنها مما يذكره أهل السير.

تحت المطر

وهنا ابتسامةٌ برائحةِ المطر، وبجمال الغيوم، يحدِّثُ عنها أنسٌ ﷺ، فيقول: أصاب أهلَ المدينة قَحْطٌ على عهدِ رسول الله ﷺ، فبينما هو يخطُبُنا يوم جمعة، إذ قام رجُلٌ، فقال: يا رسول الله، هلَكَ الكُرَاعُ، هلَكَ الشاءُ؛ فادعُ اللهَ أن يسقينا، فمدَّ يديه ودعا، قال أنس: وإن السماءَ لمثلُ الزجاجة، فهاجت ريحٌ، ثم أنشأت سحابةً، ثم اجتمعت، ثم أرسلت السماءُ عَزَالِيَها، فخرجنا نخوضُ الماء حتى أتينا منازلَنا، فلم يزَلِ المطرُ إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلك الرجُلُ، أو غيرُهُ، فقال: يا رسول الله، تهدَّمتِ البيوتُ؛ فادعُ الله أن يَحبِسَهُ، فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «حوالَيْنا ولا علينا»، فنظرت إلى السحابِ يتصدَّعُ حول المدينة كأنه إكليلٌ[1].

لماذا يتبسَّمُ؟

ما الرسالة التي يريدها أن تصل؟

تُرَى ما حجمُ الجمال الذي امتلأت به رُوحُهُ فبات لا يستطيع أن يواريَ ابتساماتِهِ العَذْبة؟

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

حتى في اللحظات التي يظنُّها أهلُ الفظاظة موغِلةً في الجِدِّية، ويتوقعون أن التزمُّتَ والملامحَ الحجرية هي الأليقُ بها! حتى في هذه اللحظات، كان يتحدَّثُ بملامحه المبتسِمة، ويدفن صخَبَ الموقفِ تحت عينيه اللَّتينِ أخفَتْهما ريشةُ الابتسامة بألوانها الزاهية.

يـومُ الاثنـَيْنِ

وما زالت الابتسامةُ هي الشفرةَ التي فتح بها النبيُّ ﷺ قلوبَ الناس، والرقم السريَّ الذي دلَفَ به إلى أرواحِهم طَوالَ حياته، بل وحتى قُبيل موته عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام؛ فقد كانت الابتسامةُ لُغتَه، وطلاقةُ الوجه نسيمَهُ الذي يهُبُّ به على أرواح صحبِهِ الكرام.

يقول أنسٌ رضي الله عنه: «بينما المسلمون في صلاة الفجرِ من يوم الاثنَيْنِ، وأبو بكر يصلِّي بهم، لم يَفجَأْهم إلا رسولُ الله ﷺ قد كشَفَ سِتْرَ حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوفٍ.. ثم تبسَّمَ»[1].

ضَعْ خطًّا تحت كلمة «يوم الاثنَيْنِ» .. أتدري ماذا يريد أن

(١) القصة في البخاري وغيره.

يقول أنسٌ بكلمة «يوم الاثنين»؟!

إنه يريدُ أن يقول: إن تلك القصةَ حدَثتْ في نفس اليوم الذي مات فيه النبيُّ ﷺ.

حتى والآلام تَنهَشُهُ، والحُمَّى تهُدُّ جسده، والموت يتراءى له: لم تفارِقْهُ الابتسامةُ بأبي هو وأمّي!

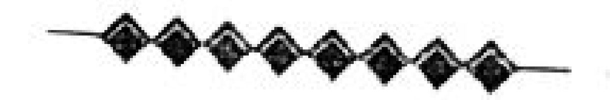
ما مقدار الجمال الذي يحيط بقصةِ محمَّدٍ ﷺ؟

كيف استطاع أن يحوِّلَ الابتسامةَ إلى جزء لا يتجزَّأُ من سيرته الذاتية، وإلى إنجازٍ من إنجازاته في الحياة؟

كيف تغلَّبَ على لغةِ الصحراء، واستطاع أن يَطمِسَ وجهَ الخيمة المكفهِرَّ، ويمحوَ عُبِّيَّةَ الجاهلية وتعاظُمَها؟

كيف وضَعَ النقطةَ الأخيرة في سجلِّ الفخرِ الكاذب، والخُيَلاء المصطنعة، وابتدأ السطرَ الجديد في إنسانية الإنسان؟

أيُّ نُبْلٍ ضمَّنَهُ سِيرته؟ وأيُّ طُهرٍ حوَتْهُ رُوحه؟ وأيَّ ابتسامةٍ كانت ابتسامتُه؟!





وأظلمت المدينة

«لمَّا كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلمَّا كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء»

أنس بن مالك رضي الله عنه



وأظلمت المدينة

ليس سهلًا أن تنطفئ الشمعة الأخيرة، فيعود الظلام لمزاولة مهنته!

ليس بسيطًا أن تُلغَى النبَضات من قلوب عرَفَت لتوّها معنى النبَضات، وأدركت قبل قليل مضمون الحياة، وحركة الدماء الدافقة.

وها هو النبي ﷺ يَحزِم أمتعته، ويَتوجَّه في ليلة باردة الجدران إلى طُرقات المدينة ليسحب الأنوار التي نثَرها في جنَبات تلك الدروب العتيقة، ويودِعها حقيبته ويغادر.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «لمَّا كانَ اليومُ الذي دخلَ فيه رسولُ اللهِ ﷺ المدينةَ أضاءَ منها كلُّ شيءٍ، فلمَّا كانَ اليومُ الذي ماتَ فيه أظلَمَ منها كلُّ شيءٍ»[1].

نحن على موعد مع شتاء الفجيعة، وزمهرير الفقد، وموسم الدموع..

---

(١) رواه الترمذي وصححه الألباني.

ومات الرجل النبيل..

وماتت معه ابتسامة كانت قد تبرعمت في قلب عمر، وأغمضت الهناءة عينَيْها في نفس أبي ذَر، وانسحبت ألوان الحياة من عينَيْ أبي عُبَيدة.

وقبـــــري..

يتجهَّز مُعاذ بن جبل قبل أشهر من موت النبي ﷺ لمغادرة المدينة، فيمشي معه النبي ﷺ ليودِّعَه، ونسائم المدينة تخلُق أريجًا لا تُتقِنه إلَّا المدينة.

فيهمِس النبي ﷺ لحبيبه الذي قال له قبل مدَّة: «واللهِ إنِّي أُحبُّكَ يا مُعاذُ».

يَهمِس له بسِرٍّ مُؤلِم: «يا مُعاذُ، إنَّكَ عسى ألَّا تَلْقاني بعدَ عامي هذا»[1].

توقف نبَضات مُعاذ، وكل شيء من حوله يصطبغ بنكهة النواح..

---

(1) رواه ابن حبّان في صحيحه.

ثم يُكمل النبي ﷺ همسه: «ولعلَّكَ أن تمرَّ بمسجدي هذا.. وقبري» فيبكي مُعاذ.

كم هي قاصمة للظهر كلمة «وقبري»، كم هي مُفجعة، كم هي مُحرِقة، وكيف استطاعت قوَّة مُعاذ ألَّا تهوي، وتُعلن الانهزام في تلك اللحظة الاستثنائيَّة؟

ما قيمة طريق العودة إذا كان الحبيب قد رحل؟

ولماذا معاناة الرحلة، إذا كانت الشمس قد غرَبَت؟ والابتسامة قد توارت؟ و«إنِّي أُحبُّكَ يا مُعاذُ» قد وُسِّدَتْ قبرَها؟

وداعـــا

وفي عَرَفات، وقف النبي ﷺ أمام مشروعه الناجح، وقف أمام أكثر من مئة ألف إنسان مسلم، كانوا جميعهم قبل عشرين سنة يسجُدون لِهُبَل، ويعبُدون العُزَّى، ويُعظِّمون مَناة الثالثة الأخرى، والآن صاروا يَهتِفون: لبَّيكَ اللَّهُمَّ لبَّيك.

يقف في نفس المكان الذي نُغِّصَت حياته فيه، وطُرِد منه، وخُطِّط لاغتياله، وهُتِف فيه بأنَّه: شاعر، وكاهن، ومجنون،

واليومَ مئة ألف يقول كل واحد منهم: أشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ.

هذه هي الشهادة العالميّة، هذا هو الإنجاز الأكثر إبهارًا في تاريخ العالَم كلِّه، وفي تلك اللحظات الحاسمة، وأولئك الجموع الذين انتقل بهم من الجحيم إلى جنَّات النعيم يَرقُبون ما سيقول قائدهم الملهم، فإذ بالصدمة تتغشَّى الجميع، يُخبرهم بكل وضوح:

«لَعَلِّي لا أَلْقاكم بعدَ عامي هذا»[1].

لقد أنجزتُ مُهمَّتي.. وجاء الوقت لأرتاحَ!

لقد صارت رائحة السماء تَهُبُّ على الرجل النبيل بكثرة، ونسائم الملائكة تُشَيِّعه في كل مكان، وكأنَّ نداء عُلويًّا يُخبره: لقد آن لكَ أن تَتدثَّر بالراحة، بعد ثلاث وعشرين سنة لم تَتدثَّر فيها ولو للحظة، منذ أن أنزل الله عليكَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

ثلاث وعشرون سنة من الكفاح المُمِضّ، والجهاد الرهيب.. الآن يُمكنكَ الجلوس، لقد تعِبتَ بما فيه الكفاية أيُّها الرجل النبيل.

---

(1) رواه مسلم.

كيف كان وَقْع: «لَعَلِّي لا أَلْقاكم بعدَ عامي هذا» على قلب سالم مَوْلى أبي حُذَيْفة؟ كيف تسلَّلَت إلى نفس سعد بن أبي وقَّاص؟ ما هو شعور عبد الله بن مسعود لَمَّا رأى النبي ﷺ وهو يقولها، وكيف انهدَّت قوى الزبير بن العوَّام وحبيبه يُعلن: سوف أُغادركم قريبًا.

وهكذا أخذت خيوط النور في الاضمحلال، وشيء من برودة الموت يعُمُّ الأجواء، ونكهة الفراق الرهيب تُسيطر على المشهَد، و«لَعَلِّي لا أَلْقاكم بعدَ عامي هذا» تُغلق على نفسها في أبعد مكان من قلوب الصحابة.

وانهمرت الدموع

في إحدى الوقَفات الوَداعيَّة، يقف خطيبًا ﷺ يُريد أن يَبوح، ولا يُريد أن يَبوح.

يُريد أن يَربِت على قلوب أصحابه قبل أن يُغادر، ولا يُريد أن يَفهَموا كل شيء فيُشعل في أرواحهم لهيب الوجع.

فقال برمزيَّة ليفهمها مَن يفهمها: «إنَّ الله خيَّرَ عبدًا بينَ

الدنيا وبينَ ما عندَه، فاختارَ ما عندَ اللهِ»[1].

كان الصحابة يستمعون، ظنُّوه درسًا في تفاهة الدنيا، ظنُّوا الكلام عن رجل من بني إسرائيل خيَّره الله؛ ولكنَّ نشيجًا جاء من إحدى جنَبات المسجد، نشيج أبي بكر الصدِّيق، فألقى بظلاله على كلمات النبيِّ ﷺ.

فقال النبي -وقد علِم أن أبا بكر وحدَه مَن فهِم ذلك الحديث المُلغِز-: «لا تَبْكِ يا أبا بكر، لو كنتُ مُتَّخِذًا خَليلًا لاتخذتُ أبا بكر خليلًا».

وكأنَّه أراد أن يَشغَله عن ذلك الكرب الذي قَرُب وقوعُه، فزاد نشيج أبي بكر، وانهمرت دموعُه.

طَرَقـات الوجـع

ثم بدأ الوجع يطرُق باب الرجل الذي مسح بيُمناه أوجاع الإنسانيَّة، سمع زوجته عائشة تشتكي صُداعًا وتقول: وارأساه.. فقال بأبي هو وأمِّي وبنفسي: «بل أنا وارأساه»[2].

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

الألم الحقيقي هو الذي أشعُر به يا عائشة، إنَّه الألم الذي سيُعاني منه الكون مئات السنين بعد أيام قليلة.

ثم ما زالت الحُمَّى تمزِّق قوَّته ﷺ وتَسلُبه القدرة على المشي، فصار لا يستطيع أن يَسير إلَّا واثنان يَقودانه، وقدماه الشريفتان تَخطَّان في الأرض، وأحزان الصحابة لحظتها تنهال على الأرض، وكل شيء يتهاوى على الأرض!

بل الرفيق الأعلى

وباتت المدينة خيمة حزن كبيرة، وكل بيت من بيوت المهاجرين والأنصار انطفأ سراجه، ودعوات تصعَد من النوافذ إلى السماء بأن يبقى ذلك المصباح ليضيء المدينة، ليضيء الجزيرة، ليضيء العالَم.

تخف الآلام قليلًا، فيخرج النبي ﷺ من حجرته، والصحابة -رضوان الله عليهم- يؤدُّون الصلاة، يخرج بوجه نقي منير كأنَّه المصحف؛ ليلقي النظرة الأخيرة على مشروعه الضخم، ليرى إنجازه الأعظم، ليُشاهد أولئك الذين كانوا يسجدون للأوثان، كيف أنَّهم باتوا يسجُدون للمَلِك الديَّان.. فيبتسم!

يتحدث الراوي أن الصحابة كادوا يُفتَنون، كادوا يقطعون صلاتهم فرحًا بابتسامته التي غابت عنهم زمنًا.

يعود النبي ﷺ إلى حجرته، فتعود له أوجاعه بأقوى مما كانت عليه، فتكون عائشة بانتظاره، فيضع رأسه في حِجرها، ثم يقول: بل الرفيقَ الأعلى، بل الرفيقَ الأعلى.. ثم يجود بنفسه الشريفة.. ليبدأ مَلَك الموت بانتزاع أطهر رُوح.

فتنتهي في تلك اللحظة قصَّة الرجل النبيل، تنتهي قصَّة الرجل الذي جاء والدنيا يأكل بعضها بعضًا، كُفرًا، وظُلمًا، وطُغيانًا، فأضاءها، ومسح عنها وَعثاء الكفر، ثم تركها وانصرف!

الفجيعــــة

ثم كانت الفجيعة، فبُهِت الصحابة لهول النبأ!

عاصفة الخبر لم تُبقِ في شجرة التماسك لديهم ورقة، كلها تحاتَّت وانتثرت في أجواء المدينة التي أظلمت فجأة.

بالأمس كانت جنَّة وارفة الظلال، واليوم صارت صحراء مترامية الأطراف.

وكيف تتماسك نفس انهالت عليها صخور ذلك الجبل الضخم، جبل الفقد الأبديِ، والفراق السرمدي.

كان أبو بكر بالسُّنْح، فجاءه الخبر، فلا تَسَلْ عن حجم السواد الذي لفَّه تلك اللحظة، فانطلق باتجاه الحجرة الشريفة، ثم كشف عن وجه النبي ﷺ فرأى النور، رأى الحرِّيَّة، رأى الهداية، رأى التاريخ، رأى الذكريات:

أتسألُ عن أعمارِنا؟ أنتَ عُمرُنا
وأنتَ لنا التاريخُ.. أنتَ المُحَرِّرُ

تَذوبُ شُخوصُ الناسِ في كلِّ لحظةٍ
وأنتَ معَ الأيامِ في القلبِ تكبُرُ

ثم قبَّله قُبلة الوداع، ودموعه أغرقت تلك اللحظات، وصوت النواح يملأ الفراغ الهائل الذي في قلب أبي بكر، ثم قال: طِبْتَ حَيًّا وميِّتًا يا رسولَ اللهِ.

تغدو نظرات الوداع للإنسان الذي لم تكن شيئًا قبل أن تعرفه كالبيت الموحِش المليء بالصدى.

أمَّا كلماتُكَ الأخيرة معه، فمِثل التراب الذي تراه في يديكَ وأنت خارج من المقبرة!

وصرخة أبي بكر العظيمة: «أرجوك لا ترحل»، لم يصرُخها، ولكنَّ الكون كلّه سمِعها.

ينهَض الصدِّيق وعلى كتفَيْه جبل اسمه الفراق الصعب، ليتدارك الأمّة قبل أن تتشقّق في وديان الهلع، فإذا بعمر شاهرًا سيفه في المسجد يقول للناس: مَن زعَم أن محمَّدًا قد مات قطعت عنقه!

فيأتي أقرب الناس للنبي ﷺ، وأعرف الناس به وبشريعته وبمشروعه العظيم، ويقول: اسكُت يا عمر! ثم يقوم خطيبًا، ويقول للقلوب التي ما زالت تُخالِجُها الظنون: «مَن كان يعبُدُ محمَّدًا، فإنَّ محمَّدًا قد مات.

فيسقُط عمر على ركبتَيْه..

ثم يُكمل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾.

أُغشي على عمر، وفجأة ضاعت الجزيرة التي كان يظن أن زورقه سيرسو عليها، لقد انتهت آخر فرصة لنجاة رُوحه المكلومة.

مات! هكذا؟ مات، دون أن يقول لي: وداعًا!

الذي حوَّلني من رجل على هامش الحياة، لا يُتقِن إلَّا ضرب الجواري، وتهديد الغلمان، فصرتُ بعدَه عمر الفاروق! الذي تهرُب منِّي شياطين الإنس والجن، مات؟ لن أجلس معه بعد اليوم؟ لن أُمسك يده مرَّة أخرى، لن أستنشق عطره للأبد؟

وأمَّا عثمان بن عفَّان فأُخرِس، فيُكلمه الناس ولا يُكلمهم، في ذهول، صار لا يرى في هذا الكون إلَّا جنازة حبيبه قد غطَّت الأفق، فصار الناس يقودونه فينقاد، وكأنَّه تائه في هذه الحياة.

وأمَّا عليٌّ بن أبي طالب فما إن سمع الخبر حتى لُبِط بالأرض، خارت قواه، فسقط.

وأمَّا أنس بن مالك فصار يمشي في طرقات المدينة، وينظر إليها فيراها مظلمة.

وعبد الله بن مسعود يُمسك عـودًا، يَنكُتُ به التراب ويقول: يوم الخميس وما يوم الخميس؟ يوم زار فيه المرض رسول الله.

أمَّا فاطمة بنت محمَّد ﷺ فأتت إليهم وهم يدفنونه فقالت: كيف رضيتْ لكم أنفسكم أن تدفنوا رسول الله؟

وأسئلة تُفتّت فؤاد تلك المدينة المكلومة: كيف ستستفيق في الغد؟ ومن أي جهة على وجه التحديد ستشرق الشمس؟ وكيف ستفاتح العصافير النائمة في صباح الغد بالخبر؟

طريـــق العـــودة

وجاءت لحظة العودة للبيوت، بعد إيداعه ﷺ قبره، إنَّه أطول طريق عودة يشعرون به! كل شيء في الدنيا فقد طعمه، وفقد لونه، وفقد بريقه! وصار اللون الرمادي موزَّع على الأوجه، والثياب، والطرقات، والأصوات بالتساوي.

حتى نخيل المدينة باتت شكلًا عبثيًا آخر؛ يوحي بالموت أكثر من إيحائه بالحياة.

يصف أنس بن مالك رضي الله عنه تلك المشاعر فيقول: «أنكَرْنا أنفُسَنا».. فلم تتغيَّر الطرقات، والأزقَّة، والأماكن فحسْبُ، بل حتى الأنفس! صار طلحة بن عُبَيْد الله يشعر أنَّه ليس طلحة بن عُبَيْد الله.. وبات أبو هُريرة يشعر بشيء غير أبي هريرة يسكُن نفسه، وصار أنس بن مالك يفتقد النبي ﷺ وأنس بن مالك!

يسير أبو بكر وعمر، وكل واحد منهما يرى في صاحبه شيئًا من أيام الرجل النبيل، وكأنَّ صوت النبي ﷺ وهو يقول: «ذهبتُ أنا وأبو وبكر وعمر. وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر» يدُق في قلبَيْهما، فلا يُريدان أن يُغيِّرا ما كان يشعر به الرجل النبيل من تعانق رُوحَيْهما.

قرَّرا ذات يوم أن يزورا سويًّا أم أيمن، كما كان النبي ﷺ يزورها.. فلما وصلا إليها بكت! فقالا لها: ما يُبكيكِ؟ إن ما عند الله خير لرسوله..

فقالت: إني أعلم أن ما عند الله خير لرسوله، وأن رسول الله قد صار إلى خير مما كان فيه، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع عنا من السماء.. فهيَّجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها..

كل وجه يُرى يلمحون فيه وجه الحبيب، وكل عطر يَعبَق يستنشقون معه عطر الحبيب، وكل صوت يُسمَع يسمعون معه صوت الحبيب..

حتى صوت بلال بن رباح فيه من تلك الأيام الخالدة..

ولكنَّ بلالًا لم يستطع أن ينثُر صوته كما كان يفعل، فلم تستطع حنجرته بعد ذلك اليوم أن تؤذِّن، فاعتزل الأذان، فصوته الصوت الذي يأتي معه بأسراب طيور لم تكن تحلِّق إلَّا في زمن الرجل النبيل!

مكَث في المدينة مهدود القوى، فمسجد النبي ﷺ، ومنبر النبي، وبيت النبي.. يُذكِّره بالنبي ﷺ فيُقرِّر الرحيل ليُداري أحزانه بطريقة ظنَّها ستُخفف مواجعه؛ فرحل إلى الشام، والدروب تنوح برياح الوجع.

ضجيـج الذكريـات

ما أحرق الذكريات إذا ضجَّت بها الأمكنة..

في كل زاوية عطر منه يهبُّ، وفي كل كلمة يسمع الصحابة نبرته، ومع كل أذان يتخايلون وجهه وهو يبتسم.

مسكين مُعاذ! كلما أمسك شخص بمنكبه التفت بلهفة، يبحث عن النبي ﷺ، فإذا بوجه آخر، وغصَّة أخرى.

محزنٌ أبو بكر! كلما طرقت الرياح بابه يخرج مسرعًا، ثم لا يجد أحب الناس.

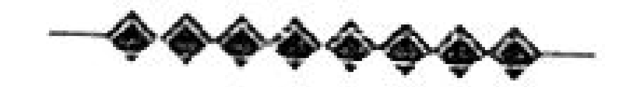
مؤثِّر حال عمرو بن العاص! كلما ابتسم له إنسان يبحث في ملامحه عن النبي ﷺ، فإذا به ليس الذي كأنَّ الشمس تجري في وجهه.

مسكين الطفل أبو عُمَير! لم يأت شخص آخر ليسأله: ما فعل النُّغَيْر؟

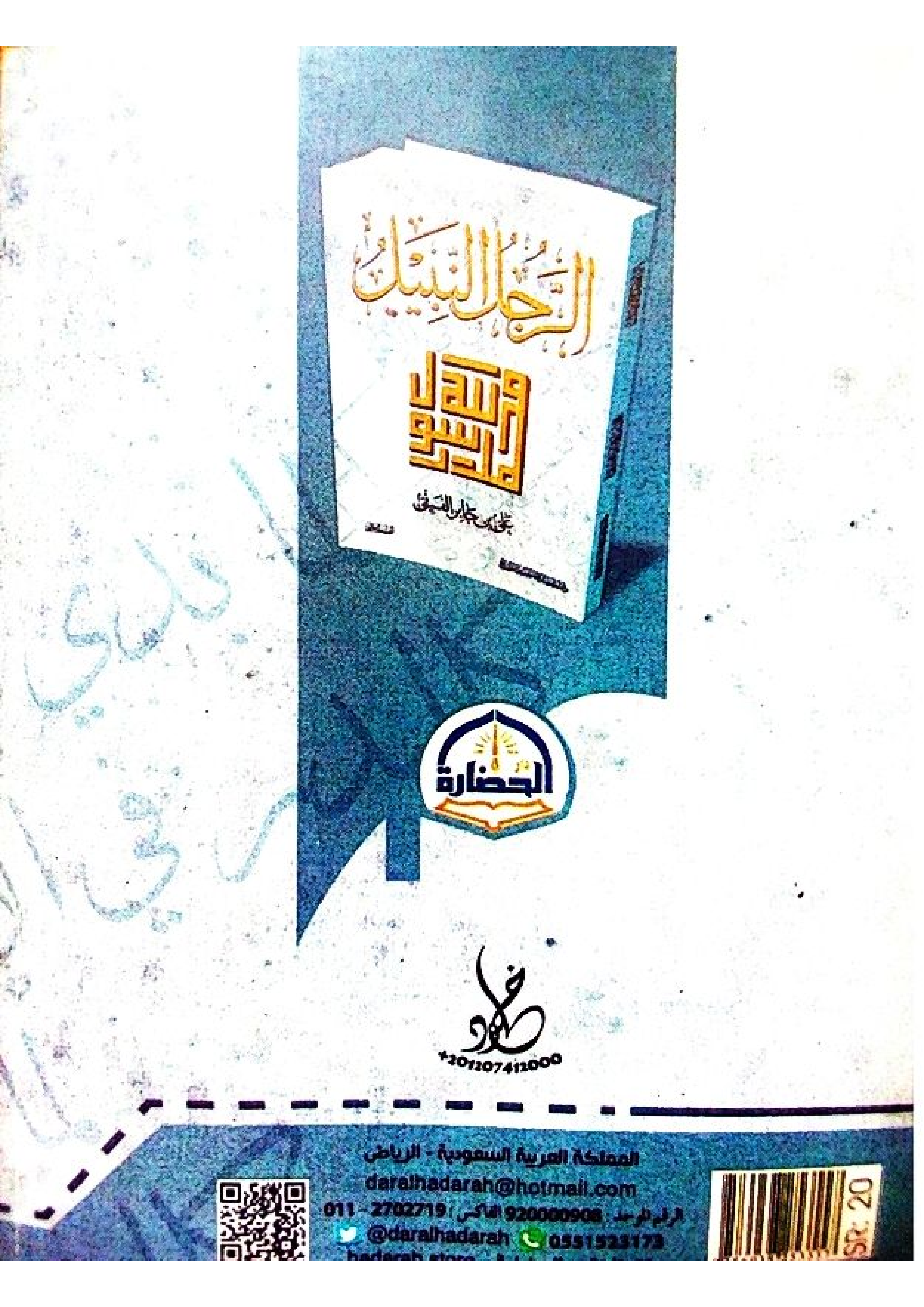
مسكين بلال! لم يسمع ذلك الصوت العظيم الذي يقول له دائمًا: أرحنا بها يا بلال.

مسكين عمر! لم يقل له شخص آخر: لا تَنْسنا من دعائك يا أخي.

مسكينة المدينة! فقدت أعظم نور أشرق عليها، فقدت أروع عطر تَضوَّع في طرقاتها، فقدت القلب الرحيم، فقدت النفس العظيمة، فقدت الرجل النبيل.



المحتويات


الرجل النبيل
الحضارة
+201207412000
المملكة العربية السعودية - الرياض
daralhadarah@hotmail.com
الرقم الموحد 920000908 الفاكس 2702719 - 011
@daralhadarah 0551523173